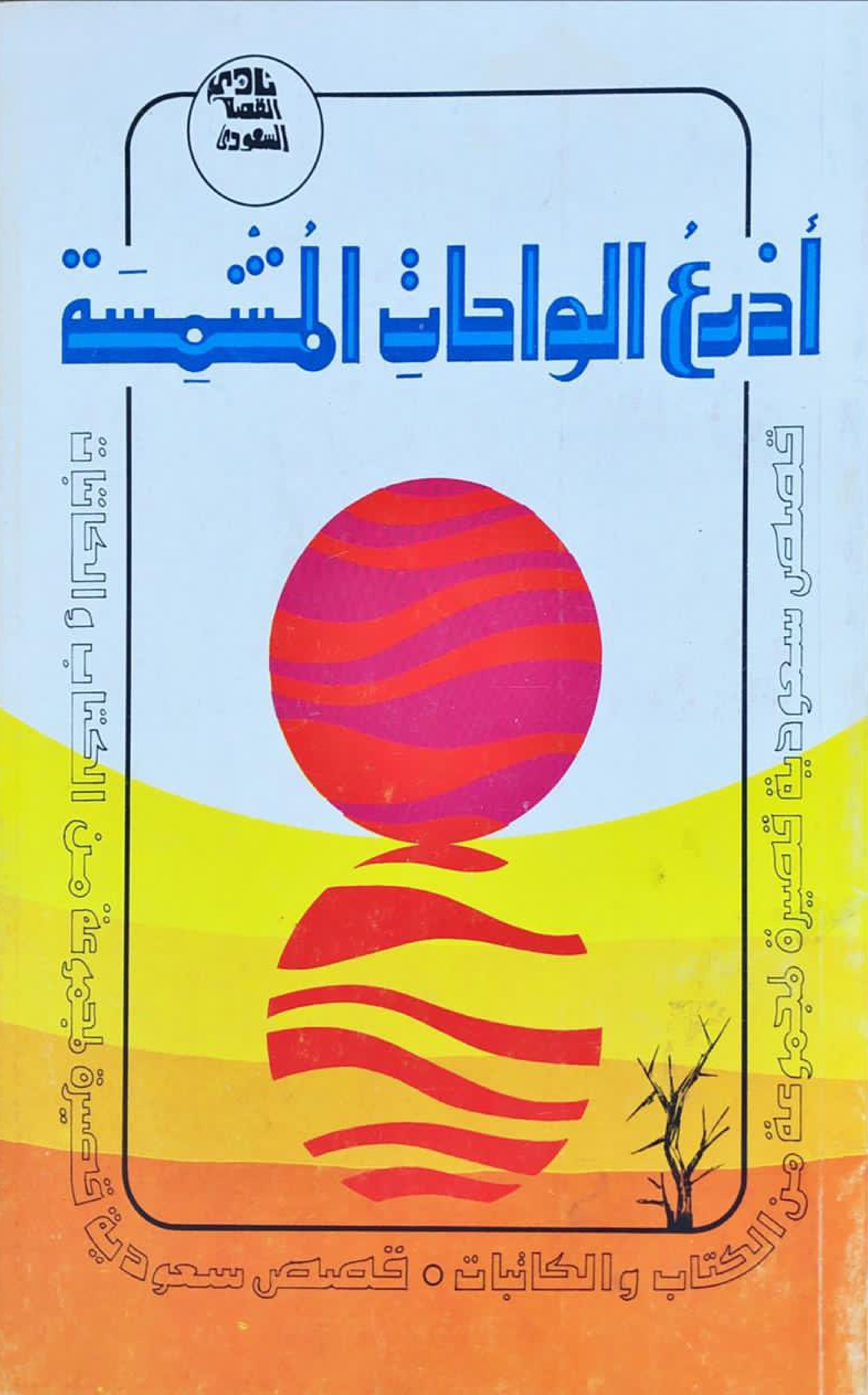

نادي القصة السعودي
أذرعُ الواحاتِ المُشمِسَة
قصص سعودية قصيرة لمجموعة من الكتاب والكاتبات
قصص سعودية قصيرة لمجموعة من الكتاب والكاتبات

أدبُ الواحات المُشمسة

صدر عن

نادي القصة السعودي

الجمعية العربية السعودية
للثقافة والفنون

الرياض - المملكة العربية السعودية - ص.ب ٣٦٥٩
تليفون ٢٧٨١٩ تلكس ٢٠١٩٣٧

الطبعة الأولى
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م

قصص سعودية قصيرة لمجموعة من الكتاب والكاتبات

المطابع الأهلية للأوفست
الرياض . شارع عمر بن الخطاب
ص . ب ٢٩٥٧ - ت ٢٧٥٤٦

هذه المجموعة القصصية

منذ ما يقرب من سنة ـ والنقاش داخل الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ـ يدور ضمن ما يدور حول « القصة القصيرة » ، هذا الفن الحديث من فنون الأدب ، والذي على حداثته لا يزال يقابل بمثل هذا العزوف من القراء في بلادنا حتى أنه يمكن القول : أن القصة تنشر في الصحيفة والمجلة فلا تجد من يأبه لها . يمر عليها معظم القراء كما يمر على طابع الصق على ظهر مظروف أو كمن يسمع بإقامة معرض للفن التشكيلي فلا يكلف نفسه مجرد عناء التعرف على ما هو أمامه فكانت الأسئلة والإجابات تطرح والاقتراحات تعرض وكأنها بذلك تدور حول سؤال واحد ملح :

وهو : ما الذي يمكننا عمله بالنسبة لفن القصة القصيرة ؟

وخرجنا من كل ذلك بضرورة إنشاء نادٍ سعودي للقصة يكون مكاناً ملائماً لطرح النتاجات ومناقشتها وتقديم الدراسات النقدية حولها بل وليقصد إلي معالجة أزمة غياب النص القصصى والمسرحي . وكنا نرى أنه إلى جانب هذه الخطوة التي يحتاج اظهارها على الملأ مكتملة ومدروسة من كافة الجوانب إلى مزيد من الوقت أنه لابد من عمل خطوة أولى

في طريقٍ طويل فجاءت فكرة طرح مسابقة للقصة القصيرة استتبع طرحها توجيه رسائل خاصة لكتاب القصة المعروفين للاهابة بهم للمساهمة فيها لا لأن المسابقة غاية في ذاتها ولكن ليتسني طرح أكبر مجموعة ممكنة ومعبرة قدر الإمكان عن المستوى الفني الذي وصلته القصة في بلادنا أمام النقد والدارسين ليقولوا ما يمكن أن يقولوه لنا . فنكون بذلك حققنا مطلبين أساسيين .

أولهما : أننا حركنا الجو الثقافي باتجاه القصة القصيرة والتركيز على العناية بها .

ثانيهما : أننا وضعنا أمام النقد خامة صالحة لأن تكون مادة للنقاش مما يساعد على التعرف على ما ينقصنا من مقومات هذا الفن وأصوله .

وبالفعل طرحت المسابقة وترك لكتاب القصة مجال اختيار الموضوع وإعطيت مهلة تقرب من خمسة أشهر ولم نشترط سوى شرطين وهما : أن يكون الكاتب سعودياً وإن لاتكون القصة سبق نشرها (ضمن مؤلف) فنكون بذلك منحنا الكاتب حق ترشيحه لأي عمل بغض النظر عن وقت الابداع . . فمنهم من استجاب ومنهم من لم يستجب .

ولقد كانت فرحتنا كبيرة إذ وجدنا أنفسنا أمام مائة وخمس عشرة قصة ـ معظمها لشبان جدد لم يكونوا معروفين من قبل .

* * *

ورغبة منا في توخي سلامة التقييم أو القرب من سلامته فقد شكلت الجمعية لجنة للتحكيم من الأساتذه الأفاضل .

الدكتور / عزت عبد المجيد خطاب

عميد كلية الآداب بجامعة الرياض

الأستاذ الدكتور / منصور إبراهيم الحازمي /

رئيس قسم اللغة العربية بجامعة الرياض

الدكتور / سعود عبد العزيز زبيدى /

رئيس قسم الأعلام بجامعة الملك عبد العزيز

وكاتب هذه السطور سكرتيراً للجنة التحكيم

وقام الأساتذه الأفاضل بدراستها كل على حده دون معرفة هوية المتقدم وأعطيت في النهاية الآراء والتقييم فكانت النتيجة هذه التسع عشرة قصة القصيرة التي فرزت على ضوء ما حصلت عليه كل قصة لدي كل منهم والتي نقدمها اليوم بعنوان « أذرع الواحات المشمسة » .

« أدرع الواحات المشمشة » لا تدعي أنها كل النموذج لما تحفل به ساحتنا الأدبية في مجال القصة القصيرة ون كنا نعتقد أنها مما يستحق الدراسة والتأمل وتسليط الضوء ، وإنا لنأمل لاسيما مع انبثاق نادي القصة السعودي وترشيح الزميل الأستاذ جار الله الحميد لسكرتاريته وهو واحد من كتاب القصة القصيرة الشباب الناجحين في بلادنا أن يجد النادي كل التفاف ودعم كتاب القصة في بلادنا مما يفتح أمامه آفاقاً واسعة رحبة تخدم الأدب القصصي والمسرحي وبعد :

فها نحن نترك المجموعة تقدم نفسها للقاريء الكريم .

صالح عبد الرحمن الصالح

بالحب بالفرح بالحزن نحيا

محمد سراج بدوي « أبو سماح »

(بسم الله الرحمن الرحيم) تمتم حروفهـــا بشفتين شبه مطبقتين ، وبقلب مفتوح . مد يده اليسرى وتناول قطعة من الخبز الطري ، لفها بعناية وبطء حتى يتسع لها فمه ، غمسها بمرق الطعام بتؤدة ثم رفعها إلى فمه محاذراً أن تسقط أية نقطة على ثيابه البيضاء النظيفة .

عيناها الواسعتان الليليتان كانتا تتابعان كل حركة من حركاته بالحب الذي رآه فيهما يوم صحاوهي تحنو على جراحه النازفة . . عيناها نخلتان مزنرتان بحزن مسائي ، وجهها واحة فرح في ليلة صيف مقمرة . قالت زوجته تقطع السكون الذي يرين على دقائق جلسة طعامهما :

لا بأس عليك ياسرحان . . أصبحت تستعمل يدك

اليسرى بصورة طبيعية تماما . . أنت عظيم أيها العزيز ، لقد تجاوزت كل المراحل بأناة .

ابتسم لكلماتها المشجعة ، وتمتم بعبارات شكر لله وتابع تناول طعامه ، تنهد بعمق بغير قصد . . تنبه أن زوجته لاتشاركه الطعام ، كانت تكتفي بالتحديق في حركة يده المنتظمة بين المائدة وفمه . داخله شيءٌ من الارتباك ، لأول وهلةٍ تغلب عليه بحركة عفوية لم يظهر منها إلا اهتزاز الجزء المتبقي من ذراعه اليمنى المبتورة .

انكفأ مرتدا بسرعةٍ إلى واحة الحزن النامية في داخله . غمر إحساسه فيها ، وارى رعشة ألم انفجرت في شرايينه بإطراقة صامتة حاول ألا تطول كثيرا ، ولكنه لم يعد يشعر بأية شهية لتناول المزيد من الطعام .

رفع رأسه قليلا مفسحا المجال لعينيه أن تقولا شيئا لعيني زوجته المخضبتين بدموع مفاجئة لم تستطع منع بعضها أن ينسكب على تورد خديها الأملس الرقيق . قال يقتل الحزن الذي غمر وجودهما :

ـ ما بك ياسعاد ؟؟ لم تأكلي لقمة واحدة بعد . . هل ثمة ما يزعجك ؟ ؟

ردت وهي تحاول أن تملأ كلماتها حبا ومودة :

أخذني الفرح ، وغمرتني السعادة وأنا أراك تعود بعد هذا الزمن الطويل إلى ممارسة عملك الطبيعي دون أية مساعدة مني أو من الآخرين .

ـ سنوات طويلة مرت وأنا أبذل المزيد من الجهد حتى وصلتُ إلى هذا الوضع ، ولو لم تكوني بجانبي بكل ماعندك من صبر ووفاء لظللت أراوح في حفرة الضعف والشعور بالنقص . لقد منحتني حياتي كلها حين كنت بحاجة إلى من يمنحني الإحساس بالأمل ، ومنحتني قوة المقاومة حين كنت على أبواب الانهيار .

• أنا لم أفعل شيئا أيها الحبيب . . إيماني هو الذي فعل . . وإيمانك أعطى للفعل حقيقته .

أخـــذ كفها بين أصابعه وضمه إلى صدره وتمتم :

من هذه اللحظة يمكننا أن نبدأ زمننا الجديد ، زمن الفرح والمستقبل . . لقد انتهى ياحبيبتي زمن الحزن والألم ، وعوضني الله هذه اليد الطيبة وستظل في وجودي اليد التي صنعت المعجزة وأعادتني إلى حياتي .

• أنتِ قوة هذا البيت ، وأنت حياتي فيه ، ويداي ستظلان مسندك ، ومتكأ راحتك .

ـ الآن استطيعُ أن أرى كل شيء بوضوح ، أستطيع أن

أحدد معالم الصورة لحياتنا المستقبلية لقد كنتُ قاسيا خلال السنوات الماضية ، حتّى صارت قسوتي سجنا ، وأنا أفرض عليك أن تظل حياتنا جافة بلا طفل يملؤها بهجة وصخبا ومسرة كنت خائفا أن نفشل في تجاوز المحنة ، ونسقط كلانا أو أحدنا قبل أن نبلغ ما نحن فيه .

توقفت اللقمة في حلقها ، وغامت عينها بموجة جديدة عارمة من الدموع حاولت أن تخفيها عنه بكفيها ، لكن صوت نشيجها الجريح أفشل محاولتها . قالت بصوت مختنق . .

– كدت أستسلم أكثر من مرة للهزيمة وأنا أسمع تعليقات أهلك وأقاربك ، كل مرة كنت أشعر برغبة في أن أصرخ بوجوه الجميع (لست امرأة عاقرا لا تستطيع أن تمنحك ولدا يملأ الفراغ بعد فقد ذراعك) كانت نظراتهم وكلماتهم حراباً تنغرس عميقة في داخلي وتدمي كياني كله . . الأمل وحده وقف حائلا بيني وبين تعذيبهم والهزيمة ، وحبي لك جعلني أتمسك بك أكثر وأرفض التخلي عنك مهما كان الثمن .

– عشت ألمكِ ضعفا وتخاذلا لأنني كنت خاسرا من الداخل وهذا ماجعلني أظل صامتا كل هذا الزمن رغم أن الصمت كان أقسى ألف مرة من شعوري بفقدان ذراعي اليمنى .

كاد الحزن ينتصر على فرحهما الجميل . مسحت عينيها المحمرتين ووجنتيها المبللتين بآثار الدموع وملأت وجهها

بابتسامة نضرة ، فبدا وكأنه وردة تفتحت لشمس صباح ربيعي ووريقاتها الزاهية تغتسل بالندى المبكر .

قالت وهي تتابع تناول طعامها بنوع من الرضى المطمئن ، وتدس في فمه قطعة لحم محمرة يلوكها بسعادة :

ـ أروع ما في هذه اللحظات أنها بداية ونهاية .

قبل أن يستفسر منها عن معنى كلماتها أكملت :

بداية لمستقبل مشرق بالفرح ، ونهاية لماضٍ مخضب بالقلق والخوف ، مع أن حبنا ولد فيه .

* * *

تمدد على أريكة قريبة من الشباك المطل على حديقة المنزل وترك لجسمه أن يأخذ كل حاجته من الراحة مفسحا لشعاع الشمس المتسلل عبر الزجاج النظيف أن يأخذ طريقه إلى أرض القاعة الفسيحة راسماً على بلاطها الرخامي الملون ظلالا راقصة لأغصان شجرة تتطاول بقامتها الخضراء المزركشة على مقربة من الشباك فتمنع الكثير من لهب شمس الصيف أن يعبر إلى داخل القاعة .

(المشهد نفسه يتكرر الآن ، وبعد هذه السنوات البعيدة . المرة السابقة كان سرحان ـ يتذكر نفسه . في المستشفى والزجاج مطلياً باللون الأزرق الباهت . وأغصان الشجرة تطل عليه شيه

عارية كلما فُتحت درفتا الشباك لاستطلاع ما يجري في سماء المدينة المقاتلة . . كانت أيام تشرين والحرب تلون كلّ شيءٍ حوله ، المرضين والممرضات وربما الشوارع والأبنية وحركة الناس ووجوههم . لم يعد يذكر في أي شهر عربي حدثت هذه الأمور ، لكنه يتذكر تشرين لأن سعادا بثيابها البيضاء الزاهية كانت تنقل له الاخبار كل يوم وتحدد له التاريخ . .

عندما فتح عينيه أطل عليهما وجهها الياسميني ، ويدها تمسح وجهه وعنقه بقطعة من الشاش المبلل ، حاول أن يتحرك وينتفض من سريره لكنه لم يستطيع ، غلبته آلامه التي تشدّ كل جزءٍ في جسده ، أحس وكأنه مقيد بقيود مشدودة إلى جوانب السرير الأبيض ، نقل بصره بين وجهها وجدران الغرفة والشباك المغلق بزرقته الباهته ، شعر بغربته في المكان ، سألها متجاهلا ما يتذكره وما يغرقه من ألم — أين أنا ؟ ومن أنت ؟ وكيف جئت إلى هذا المكان ؟

— أنتَ بين أهلك ، أنا مكلفةٌ برعايتِك وزملائك من المقاتلين ، إنني معكم دائما ، وإذا ما احتجت شيئاً ، ضع يدك على الجرس القريب وستكون سعاد أمامك بالحال .

اعتصر الألم كلّ جسمه دفعة واحدة أغمض عينيه قسرا وغاب عن الوعي .

عندما زاره قائده بعد أيام كان يستطيع تحديد معالم الصورة

التي يتصورها ، ويتذكر كل ماحدث له بتفاصيله الصغيرة ، القصف المعادي مستمر وبعنف ، والرد عليه كان أكثر عنفا ، نداء « الله أكبر » يملأ الأفق يردده كل المقاتلين بصدق وإصرار على النصر ، داخله يمتليء زهواً ويده على زناد بندقيته في انتظار اللحظة المناسبة ، ارتباطه بالعالم الخارجي ساعتها يمر عبر فوهة البندقية وفي قذيفة المدفع ومع أزيز طائرة وتقدم دبابة ، إنه الآن في خضم الحقيقة التي كانت حلما يتأرجح في باله يوم تطوع في الجيش السعودي ــ عندما يعود إلى المملكة ويلتقي بأهله وأصدقائه سيكون لديه الكثير من الحكايات الشيقة عن الحرب والرجال والبطولات ــ

القصف يشتد ، والأوامر تصدر للتقدم في هجوم معاكس على مواقع العدو ، يصيح بأعلى صوته « الله أكبر والنصر من عند الله » وينطلق إلى الأمام مع المتقدمين كتلة من نار وغضب .

الجميع قاتلوا بضراوة ، وهو بالذات كان يحس أنه يومه الذي انتظره زمنا طويلا ، أفرغ عشرات المخازن الممتلئة ومئات الطلقات قبل أن تأتي القذيفة الغادرة . كانت أكثر القذائف لمعانا وضجيجا وقربا من مكانه . فذف بنفسه إلى حفرة قريبة بكل مالديه من قوة لكنه لا يذكر أن كان وصل إلى أرضها أم لا ، فجأة فقد إحساسه بكل ماحوله وغاب في ظلام سحيق .

سعاد تملأ حياته برعايتها ، وتذيب آلامه بابتسامتها وتمنحه

السعادة بأخبارها ، في الأيام الأولى كانت جزأ مما حوله . في الأيام التالية صارت كل الأجزاء ، وصار يرغب في الموت لأنه لايريد أن يعذبها ، ولا يريد أن يعيش بذراع واحدة ، ولا يريد أن يتعلق بها أكثر مما وصل إليه . في الأيام الأخيرة صار حبها أعظم ما في وجوده فاعترف لها بمشاعره ، وباحت له بسر اهتمامها . إنه يتذكر كلماتها وهي تبوح له بسرها المكتوب بالسهر والدموع ، والذي خبأته وراء ابتسامتها المشرقة وكلماتها الندية . يتذكر كلماتها حرفا حرفا .

ـ سرحان الحبيب ، التقيتك جريحا نازفا مخضبا بغبار المعركة وعطر القتال ، واخترتك رجلا ، أحببتك كما أنت ، بصمتك ، بحزنك ، بجراحك ، ولا أعرف عنك أكثر من اسمك ، وصفتك العسكرية ، وهذا يكفيني فليس ثمة ما أريده بعد ذلك ، سعادتي أن أراك تستعيد صحتك ورغبتك في الحياة والفرح ، وجودنا بكامل أعضاء جسمنا وبغير إحساس بالحب وبجمال الكون من حولنا هو الحياة ، الحياة هي الإيمان والأمل والحب وبها نستطيع أن نعوض كل نقص في وجودنا .

حدثها عن نفسه أخبرها بكل تفاصيل حياته ، وحدثته عن حياتها وأسرتها ، عن والدها الذي يعمل بائعاً متجولا ليعيل أسرته المكونة من زوجته وخمسة أولاد ، هي كبرى بناته طالبة في الثانوية العامة تطوعت للإسعاف والتمريض خلال

الحرب ، أحد أخويها تخرج مهندس بترول والتحق منذ شهور بعمله في حقول النفط ، الآخرون يتابعون دراستهم .

أنقى الصور في ذاكرته يوم جاء والداها لزيارته في المستشفى ومعهما باقة ورد تنضح بعبير أخاذ ، قالت والدتها إنها جمعتها من حديقة منزلهم البسيط ورتبتها بنفسها لأن أسعار الورد في السوق مرتفعة جداً . عرف يومها كم هو رائع أن يعيش الناس بصدق ويتصرفون بطيبةٍ وعفوية ، وأحبهم جميعاً لكنه أحبهم أكثر يوم زارهم في منزلهم البسيط وعاش مع بساطتهم نهاراً كاملاً نسي فيه كل متاعبه حتى عاهته ومصيبته . قرأ الفاتحة مع والدها واتفقا أن يعود بعد عام ليتزوجها ، حين تكون قد أنهت دراستها الثانوية .

أشبه بحلم ذلك الذي حدث ، لكنه حلم واقعي . كان العام الذي عاشه بالانتظار شديداً عليه . ترك خلاله لأخته أن تكتب رسائله إلى سعاد ، ومع كل رسالة كان يزداد هزيمة في داخله ، فكل كلمة تصل منها تزدحم بالوفاء والشوق بينما لم تكن رسائله إليها أكثر من كلمات عادية خالية من إحساسه وهمسات روحه ، لأن أخته لايمكن أن تكتب مايريد أن يقوله ، ولسانه لايقدر أن ينقل نبض قلبه المحب إلا إليها وحـــدها .

العام مر ، حقده على نفسه وخوفه من المستقبل بلغا حد الرغبة

في الموت ، لم يعد باستطاعته أن يستمر أكثر من ذلك ، حاله خلال العام ازداد سوءاً ، وضاع كل الذي كسبه في الشهور الأولى ، حتى أنه لم يستطع أن يتعود على استعمال يده اليسرى في قضاء حاجاته الضرورية ، أدرك أن لافائدة في حياة تنتهي كل دروبها إلى الفشل . وفي لحظة الضعف القاتلة أطلت صورة سعاد بقعة ضوء في سواد المأساة ، ويداً تمتد إليه تحاول انتشاله من الهوة السحيقة التي سيقذف بنفسه فيها لينتهي إلى الأبد ، لكنه أقنع نفسه أن العذاب الذي ستعيشه عندما يبلغها خبر نهايته وهي بعيدة عنه سيكون أهون عليها من عذاب دائم يضعها فيه إذا ماتزوجها وترك لأنانيته أن تسيطر عليه . في لحظة الضعف القاتلة تهاوت كل عروش الأمل والسعادة ، وتساقطت كل أحلام الماضي والمستقبل ، وارتفعت راية الموت تخفق في سماء مشاعره ووجوده كله ، أمسك القلم بيسراه وحاول أن يكتب كلمة وداع قصيرة ، خانته أصابعه المرتعشة ، سقط القلم من بينها أكثر من مرة فبكى ، حتى رحيله سيكون بلا كلمة وداع ، وبلا أية ذكرى . .

دخلت أخته عليه بلا استئذان والبشارة تملأ قسمات وجهها وصوتها المبتهج يسبقها مرددا (سرحان . . سرحان . . جاءتك برقية من سعاد) . تيبست عند باب غرفته حين رأت الدموع تغسل وجنتيه وزجاجة حبوب مسكنة لم يعتد استعمالها فوق المنضدة القريبة منه ، حاول أن يخفي الزجاجة بحركة سريعة

منفعلة من يده ، لكنها سقطت على بلاط الغرفة لتتكسر وتتدحرج حباتها متناثرة بين قطع الأثاث . وقف محدقا في حطام الزجاجة ومحتوياتها وقد تلون وجهه باصفرار يحاكي اصفرار وجوه الأموات ، تقدمت أخته واحتضنته وهي تردد بصوت باك – (أنت ياسرحان . . أنت المؤمن العاقل تفعل ذلك ؟ غير معقول . . إنني لا أصدق ما أراه . . كيف تفكر في الهرب الجريمة وسعاد تنتظرك لتبدأ معك رحلة الحياة السعيدة ؟ لا أصدق ! ! لا أصدق . .) من أعماقه المنهارة البعيدة خرجت الحروف مرتجفة واهنة . أستغفر الله ، والحمد لله على كل حال ، أعطني البرقية . .

كانت الورقة تحوي ست كلمات فقط ، وجد فيها كل أغنيات المحبة وقصائد المسرة . (نجحت ، انتظرك ، أنابشوق لرؤيتك . . سعاد) ضم الورقة إلى صدره بقوة وهمس لنفسه (وأنا بشوق ليس له حدود لرؤيتك) ربت على ظهر أخته بحنان ، وخرجا من الغرفة تاركين خلفهما تلك البقايا المحطمة .

* * *

نهض من استلقاءته وجلس متكئا إلى مسند اسفنجي حين رأى زوجته تقبل عليه حاملة معها الشاي ، أفسح لها مكانا بقربه وأخذ يراقب حركاتها وهي تضع السكر وتصب الشاي متهللة الوجه وشيء في داخله يرقص طربا . مع رشفة الشاي الأولى سألها :

– هل فكرت باسم نطلقه على وليدنا الأول ؟

• فكرت ، ووجدت أن علينا أن نختار اسمين لا واحداً

– اسمين ! ! لماذا ؟ هل تعتقدين أنك ستنجبين توأمين ؟

• لكم اتمنى ذلك وأرغبه ؟

– معنى هذا إذا أكرمنا الله ومنّ علينا به أن تساعديني في حملهما . . .

. لا تهتم كثيرا لذلك ، سيكون لكل منا ولد يرعاه . .

ضمتهما ضحكة سعادة طروبة مزدانة بكل الحب ، وانطلقا على جناح الأمل . . .

المسافر في قطار السهد

محمد سراج بدوي « أبو سماح »

١

قطار السهاد يعبر محطات الليل ساعة بعد أخرى ، وهو يركب المقطورة الأخيرة ، وحيداً في المقعد الأخير ، لم يحدد المحطة التي سيتوقف فيها لأنه لا يرغب في ذلك . إنها المرة الأولى التي يركب فيها هذا القطار المرهق ، رغم أنه يسير بلا عجلات وبغير قضبان ولا يصدر عنه أي صوت أو صفير . خمسة وعشرون عاماً أنهاها « أسعد كئيب » بصورة اعتيادية متفوقاً في دراسته ، ناجحاً في علاقاته ، صديقاً لكل من عرفه ولأنه يؤمن بالله اعتبر أن ما حدث له من إرادة الخالق ولا اعتراض على إرادته . تحطمت سيارته الصغيرة في حادث على طريق دولية ، وهذا لا يهمه لو لم يكن بداخلها ، فالسيارة كأيه حاجة يمكن شراؤها ببضعة آلاف لكن الصحة لا يمكن

شراؤها بالملايين . هذا ما أوصله في معاناته إلى قمة يصعب النزول منها .

الحادث ، زمن التراجع في حياته ، إشارة المرور الحمراء التي أوقفت تقدمه ، ترك في جسده الشاب أثاراً احتاجت إلى ثلاث سنوات من المعالجة الطبية المتواصلة في الخارج لإزالة بعضها . هذه السنوات الثلاث عندما يتذكر تفاصيلها لا يطفيء لفافة تبغ إلا ليشعل منه لفافة أخرى . الحادث ، زمن التراجع في حياته أوقفه عن متابعة دراسته الجامعية وهو في السنة الأخيرة ليتابع علاجه .

٢

قطار السهاد مازال يعبر محطات الليل . في المحطة الثالثة بعد الرابعة والعشرين تتكاثف هجرة الأفكار من رأسه ، الخيبة تقعي في زاوية ميتة من أعماقه ، إنه لم يستسلم لها ولن يستسلم. بين التذكر والواقع يقطع رحلة الساعات الطويلة هذه . . يتذكر زهوه ونضارة شبابه قبل الحادث ، مشيته كانت قفزاً بتأثير حبه للرياضة ، والمشي رياضته المفضلة . كل أعماله كان يقضيها ماشياً على قدميه . ابتسامته هي عنوان حياته . ولأن اسمه « أسعد كئيب » كان غريباً ومثيراً للانتباه ، أية مشكلة تواجهه يعالجها وينهيها بابتسامة تنتقل من وجهه إلى وجوه الآخرين فلا يتذكر أحدهم إلا القسم الأول من اسمه . الواقع

أنه مازال يحب المشي على قدميه لكنه يتعب بسرعة . ظروفه لم تعد تساعده على ممارسة رياضته المفضلة . في صباح هذا اليوم ستكون لديه مجموعة من الأعمال المترابطة ، سيقابل أهم رجل في المدينة بناء على موعد تم بوساطة قريب من ذوي النفوذ . وسيذهب إلى مكتب شركة الطيران ليحجز مكاناً على طائرة مسافرة إلى أوربة ، بعد سنة جديدة من العلاج سيعود إلى جامعته لينهي السنة المتبقية عليه ، تكاليف العلاج الباهظة والتي لا تحتملها ميزانيته المحدودة تبرع بها الرجل المهم ، والمقابلة : لتحديد المبلغ المطلوب .

في المحطة الرابعة بعد الرابعة والعشرين صارت خطوات قطار السهاد بطيئة ناعسة ، عيناه المحمرتان تعبتا من التحديق في جدران الغرفة وسقفها ، ونجوم السماء الصافية ملت نظراته المتدفقة عليها عبر النافذة المفتوحة لنسيم الصبا . غزاه وهن مشبع برطوبة ليل مدينته البحري فأسلم جفنيه لسلطان الرقاد ، وتوقف القطار المتعب في تلك المحطة المتأخرة من محطات الليل .

٣

ملهوفاً يبحث عن أوراقه ، يجمعها من أماكن متفرقة في محفظته الجلدية اليدوية الصغيرة ، غلبه النعاس فتأخر في نومه ، وتأخر في استيقاظه ، لكن موعده مازال يبعد عنه أكثر من

ساعة ، الوقت كاف لتحضير الأوراق والاستعداد . تناول إفطاراً سريعاً وخرج ، أخذ سيارة الأسرة حتّى لا يتأخر ، سار بها في شوارع المدينة محاذراً أن يقع في أي مأزق ، لأنه يحتاج لكل دقيقه من وقته ، قطع الشارع الأول بمنتهى الهدوء في الشارع الثاني كان الازدحام على أشده ، تجاوز الإشارة الأولى بثقة ومهارة ، لحظة واحدة تفصل بينه وبين الإشارة الثانية ، حاول تجاوزها والضوء الأصفر يعلق ضرورة الترّيث ، لم يستطع نقل قدمه إلى فرامل السيارة بالسرعة المطلوبة ، أكمل تجاوزه ، كاد يصطدم بالسيارات المنطلقة من الشارع الآخر . ارتفع صوت صافرة الشرطي ، ويده تشير له أن يقف بسيارته على يمين الشارع ، أذعن لإشارة الشرطي وتوقف بسيارته قريباً من الرصيف الأيمن بينما بادره الشرطي قائلاً :

ـ ألم تر الضوء الأحمر في إشارة المرور وأنت تتجاوز الشارع ؟ كدت تتسبب في مجموعة اصطدامات لولا العناية الإلهية . . إعطني أوراقك .

رد بهدوء محاولاً ألا يطول حواره مع الشرطي لضرورة الوقت عنده :

* في الحقيقة لم أستطع استعمال الفرامل في اللحظة المناسبة لأن ساقي لاتساعدني كثيراً على تحريك قدمي بسرعة . . أنا مصاب .

ـ ما دمت مصاباً ولا تستطيع التحكم بقدميك ، كيف تقود سيارة وتعرض نفسك والآخرين للخطر ؟ أعطني أوراقك فلن تفلت من المخالفة حتى تتذكر مرة أخرى معنى القيادة .

وخزه قول الشرطي في أعماقه ، لكنه ابتلع الألم وقال بهدوء :

* أليس لديك حل آخر . . إنني على عجل ، فموعدي مع أهم رجل في المدينة قد اقترب .

ـ إذهب وقابله ، ثم عد إليّ فأكون في إنتظارك مع المخالفة والأوراق .

أخذ الشرطي الأوراق وابتعد بينما مد رجل ـ يراقب المشهد متفرجاً ـ رأسه من شباك السيارة وهمس لأسعد :

ـ واحدة من فئة الخمسين تعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي.

التفت إلى مصدر الصوت كان الرجل قد ابتعد وضاع في الزحام تاركاً له أن يفكر . لم يطل به تفكيره ، مد يده إلى جيبه وأخرج منها ورقة نقدية من فئة الخمسين ولحق بالشرطي ، وبينما وقف يقلب الأوراق بين يديه ، دس له الورقة النقدية وقال ضاحكا :

* هذا هو العربون ، وسأعود بعد قليل لأكمل قيمة المخالفة .

قبل أن يتفوه الشرطي بكلمة كان « أسعد » قد أخـذ الأوراق منه وعاد إلى سيارته ، وفيما هي تتحرك وقف الشرطي يبتسم ويرفع يده محيياً وشاكراً وعيناه تراقبان المكان بحركة دائرية سريعة بينما يده الأخرى تخفي الورقة النقدية في جيبه .

٤

قرص الشمس الملتهب ارتفع في قبة السماء ، والحرارة المغمسة برطوبة دبقة تغزو كل ركن في المدينة الساحلية ، « أسعد » يحس برغبة في التخلي عن « دشداشته » الملتصقة بجسمه . جمهرة من الرجال تقف عند باب القصر المزركش ، بعضهم بيده أوراق أمسكها بحرص شديد . لابد أن لكل منهم مشكلته الخاصة ، نظر إلى ساعة يده ، إنه في الموعد تماماً . اقترب من رجل يبدو عليه أنه أحد الحراس وسأله عن كيفية الدخول لمقابلة المسؤول الأول وله معه موعد ، حدجه الحارس بنظرة متفحصة غمرته من رأسه حتى قدميه وردّ ببرود ولامبالاة « عندما يعلق اسمك تدخل للمقابلة » . تذكر الشرطي . مد يده إلى جيبه وأخرج ورقة نقدية من فئة الخمسين ، ودون أن يلاحظ أحد ممن في المكان حركاته وضعها في كف الحارس محاولاً أن يظهر للآخرين وكأنه يصافحه وقرب رأسه منه

هامساً « هل من طريق للدخول ؟ » ظهرت على سحنة الحارس علامات خالها عدم الرضا فانتفض قلبه وتهيأ للتراجع قبل أن يسمع كلمة أو شتيمة ، ابتسامة جافة انتشرت ببطء على ملامح الحارس أعادت إليه بعض الثقة ، تبعتها عبارات التقطها أسعد بصعوبة وبكل حواسه من شفتيه شبه المطبقتين ، فهم منها أن عليه أن يذهب إلى الغرفة الثالثة على يمين الرواق بعد الفسحة التي تلي الباب الخارجي مباشرة ، وسمح له بالدخول . تجاوز الباب الخارجي الواسع ، وعبر الفسحة الزاهية الألوان ، البرودة التي تملأ الرواق أخذت تمتص العرق المتصبب في كل جزء من جسمه . تمهل قليلاً وهو يحدق في لوحة ملونة للمدينة تملأ الجدار في صدر الرواق ، وفوقها لوحة من المخمل الأسود ملأتها عبارة « الله جل جلاله » مكتوبة بخط زخرفي بديع وبخيوط مذهبة براقة تضفي على الرواق شيئاً من الخشوع والرهبة . دق على باب الغرفة المغلق دقات خفيفة سمع بعدها كلمة « تفضل » دلف إلى الداخل فألفى نفسه في غرفة ذات جدران لامعة وستائر حريرية تتناسب ألوانها ولون الجدران وفي صدر الغرفة مكتب أنيق اصطفت حوله مجموعة من المقاعد الوثيرة الفخمة وبينها طاولة مزخرفة يتمدد فوقها زجاج نظيف تعلوه مزهرية من الكريستال وزعت فيها باقة جميلة من الورود الطبيعية ، وراء المكتب الذي تعلوه صورة كبيرة يجلس رجل في العقد الرابع من عمره ، وجهه تغطيه مسحة وقار ، وأناقة

تنم عن نعمة دائمة ، رحب بالقادم الواقف قرب الباب ورد تحيته ودعاه للجلوس ، سمع منه كل ما كان بباله وما حضره من أقوال تتعلق بقضيته قلب بعض الأوراق أمامه ، أخذ منها ورقة معينة وخرج مفسحاً لأسعد أن يزيد معرفته النظرية بمحتويات الغرفة .

دقائق مرت ، حلم خلالها أن السيد المهم والمرتجى سيستقبله كصديق قديم ، وسيناقش معه تفاصيل مشكلته ويترك له حرية اختيار المبلغ الذي يحتاجه ، وربما منحه شيكاً فورياً بالمبلغ طربت روحه الهائمة لهذه الأفكار فلم يحاول طردها من ذهنه وتركها تصول وتجول فيه . انفتح الباب وأطل منه الرجل الوقور يعلن له استعداد السيد لاستقباله . غرفة السيد مثيرة للبهجة بأثاثها الأكثر فخامة وراحة ، ومساحتها الأكثر اتساعاً وجوها الأكثر برودة وعطراً . والوقت الذي قضاه فيها لم يتح له فرصة التمعن في محتوياتها . منذ لحظة دخوله كان ينتظره سؤال عن حاجته ، شرحها باختصارشديد أحسه ضرورياً بينما كان السيد مستغرقاً في قراءة طلبه . شرب القهوة المرةالتي قدمها له رجل مهمته لا تخرج عن تقديم القهوة . جمع كل حواسه في أذنيه ليسمع الكلمات التالية :

ـ سندرس طلبك بعناية إن شاء الله ياولدي ، اترك لنا عنوانك وسنرسل لك الرد خلال الأيام القادمة ، وندعو الله أن يوفقك ويمنحك الصحة والعافية .

حاول أن يقول شيئاً لكن السيد التقط سماعة الهاتف وبدأ حديثاً وثائقياً .

٥

قطار السهاد المسافر عبر محطات الليل ، يقطع مدن الذكريات ، ويعبر قرى الأحزان ، ودساكر الأفراح ، « أسعد كئيب » أشرق الأمل في حياته ، امتلأت سماء عمره بالأقمار الوردية ، وغادرته الكآبة حتّى فكر في تغيير كنيته وتسمية نفسه « أسعد حبيب » فهو رغم أنه أضاف إلى سنوات عمره الماضية سنة ونيفاً إلا أنه غير نادم على ذلك ، لقد كسب في هذه الفترة حباً عظيماً ، بل كسب كل الحب . عمل في التجارة ، وسافر إلى البلدان القريبة وأحضر منها بضائع متنوعة حقق فيها أرباحاً كبيرة كونت لديه رأسمال يكفيه لمعالجة آثار الحادث القديم . لكن أهم ربح حققه كان ثقته بنفسه وتأكده من النجاح في كل الظروف . عام ونيف ولم يصله رد السيد المرتجىّ فربما ضاع عنوانه بين الأوراق الرسمية الكثيرة وعناوين المعارف والأصحاب ، تمنى لو أن التقى مرة أخرى بالشرطي والحارس ليقدم لهما الشكر والامتنان فقد علماه وبغير قصد حتماً أن طريق النجاح لا يمر أبداً في نفق الرشوة والكذب ، بل يمر فوق تلال الصدق والمحبة .

توقف قطار السهاد في واحدة من المحطات الّتي لا يعرفها. أسند رأسه إلى المقعد وراح يحدق عبر زجاج النافذه في الغيوم البيضاء الّتي تحيط بالطائرة . وجوه كل من يحبهم كانت تبتسم له وأيديهم تحمل لوحة ارتسمت فيها خطوط الحلم الذي يدغدغ روحه ، إنه عودته إلى الجامعة بعد سنة العلاج الّتي يبدأها من الآن .

المجهول

عبد الحميد علي محمد القطري

لم يستطع الضجيجُ المتصاعد بين العربات المتسابقة ، ولم تقو الحركة الصاخبة التي كانت تطوق الميدان الكبير ، ولم تتمكن الهياكل التي يصارع بعضها البعض في موكب الحياة — أن تخرج أميرة مما كانت عليه .

كان رأسها مثقلا بأفكار وأوهام — أصابع تضغط على نحرها تخنقها وتشل فيها كل قدرة على التفكير . . . صمت فيها التفكير كما صمت فيها الصوت فلم تجب على الأسئلة الملحة التي كان يلقيها كل من أخيها وأختها الصغيرين . . . . أمسكت كلاً منهما بيديها ، كانت بين الآونة والأخرى تضغط على اليدين الصغيرتين اللتين نامتا بين يديها مستسلمتين في هدوء . . . وعاد الصغير يسأل . . . وراحت الأخت الصغرى تعيد السؤال وتلح في تكرار : أين نذهب ؟ يا أبلة أميرة . . . ! ؟ » — لكن الفتاة الكبرى التي لم تدخل بعد دنيا

الأمومة ــ راحت تمضي والطفلان يحيطان بها أوزاراً ، يثقلان كاهل تفكيرها !! . . . وودت لو استطاعت أن تنتزع نفسها من ذلك الفراغ الموحش القاتم ، ذلك العجز عن استيحاء الحل . . . والوصول إلى موقف .

لقد تلقت الآن من أبيها أمراً واستجابت له ، ولم تنبس بلفظة واحدة معارضة لكأنما كانت ملحقاً يحمل الفصول الأخيرة لآثام أمها . . . .

همس الصغير عن يمينها « أين نذهب . . . تعبت . . . لا أستطيع السير » وابتلعت ضوضاء الحياة من حولهم سؤال الطفل وراحت أختها الصغيرة تعيد السؤال ــ ولكن جمود الحيرة الذي كان يخيم على أميرة أقام بين أذنيها حاجزين ــ عيناها اللتان اتسعتا ، تحدجان الأشياء من حولها ولا تريان شيئاً . . . كان بصرها شاخصا إلى فراغ . . . فراغ لا تلوح فيه بداية لخيط تهتدىء به كلمات أبيها .

ظلت أميرة ترسم أيامها صوراً لمجهول وحش فاغر فاه ــ لم تمسك بأبعاد الكلمات ــ عيناها فقط راحتا تعيان الكلمات . . . نعم ليس لها أن تختار ، عن يمينها وشمالها جزءان من دمها وروحها يعيدان خطواتها عن الوهم ويربطانها بواقع قريب لا سبيل إلى مجاوزته . . !! راحت تتخذ سبيلها إلى محطة القطار وإحساس بغيض يلقي على نفسها ظلالا صفراء

وأشباح الناس تنطلق أمامها كريهة – لم يتبقّ معها بعد قطع التذاكر غير قروش . . وعن يمينها وشمالها حملان غاليان تخشى عليهما من كل عابر ولا تخشى على نفسها من شيء . .

لم تستطع صرخات صفير القطار أن تخرجها من ذلك الصمت الذي طال والذي راح يزحف ثقيلا متمرداً على الصغيرين الذين لم يريا من الأمر إلا قليلا – وتتزاحم الناس بالمناكب ويهرعون إلى مقاعد القطار متسابقين . . . وأميرة تمضي في أناة كمن يمضي إلى حكم أرغم على تنفيذه .

وفي القطار هدأ الطفلان وأحسا بشيء من الرضى وأدركا كل شيء بعد قليل . . . بعد قليل سيتحدثان إلى أمهما حديثا طويلاً ينفسح له صدر الأم وسيشكوان إليها صمت أميرة الطويل . . . واتسع الفراغ واتسعت معه عينا الفتاة وراحت تعصف بنفس أميرة مخاوف وتحس أن شيئا رهيباً يوشك أن ينقض عليها . . . . . ! !

راحت تقلب النظر في كل شيء – لقد تركت كتبها في البيت ولم تحمل معها أثوابا كافية ، لم تكن تتوقع أن يطول غيابها عن البيت – ماهي إلا أيام وتستأنف الدراسة في الجامعة . . . فما هي إلا شهور وينتهي الأمر كله وينتهي احتياجها الذليل إلى الأب – والبيت الكريه ، لكنها كانت تأمل أن تكون الشهور القليلة الباقية لها على تخرجها في الجامعة ،

أياما هادئة زاخرة بالجهد المبذول والسهر المتواصل في سبيل إنهاء رحلة طال مداها في طريق وعر محفوف بالأخطار ! ! ولاحت في ذلك الفراغ صور الزملاء والزميلات . . . والأساتذة . . . وقاعات المحاضرات . . . كادت الحواجز القائمة حول أذنيها أن تتصدع عندما خيل إليها أنها تسمع أصواتاً خافتة لضجيج الطلبة والطالبات . . . والمناقشة في قاعة المحاضرات . . . هنالك لاحت في الفراغ الكئيب أجسام أخذت تنكشف شيئا فشيئا . . . بل راحت رأسها يتمايل تحت ثقل أفكار كثيرة محفوفة بالغموض – ضائعة في عجز الوضوح . . . ! ! . . تعالى صفير القطار واشرأبت الرؤوس ولوحت الأيادي بالوداع – واعتدل الناس في مقاعدهم وولوا وجوههم شطر القاطرة

أحاط الصغيران بأميرة وأمسكا بأهدابها كما يمسك الخائف بأذيال الأمان . . . وتحرك القطار . . واهتزت الأجسام – ومع تحرك القطار واهتزاز الأجسام تطايرت تلك الأفكار التي أو شكت أن تملأ ذلك الفراغ الكئيب وسرعان ماراحت الفتاة تشخص ببصرها إلى لا شيء ! ! ! ؟ ؟

هم الطفلان بالحديث ولكنهما تراجعا وأطراقا وتبادلا نظرات العجب والاستغراب والتساؤل – وكادت تنطلق منهما ضحكة ساخرة من كل شيء واستردا البصر في خبث إلى تلك الذاهلة التائهة في متاهات الظروف التي ألقت بها في عالم التفكير فيما سيكون .

طافت برأسها مواكب من الصور متنوعة متعددة . . .
يزاحم بعضها بعضا – بعضها مشرق باسم وبعضها قاتم مكفهر
– راحت أميرة الحائرة تستعرض هذه الصور ! ! تحفزت
مخيلتها ونشطت حتى بلغت قاعة المحاضرات بالجامعة – فرأت
زملاءها وزميلاتها وأساتذتها – بل تهدمت تلك الحواجز حول
أذنيها فسمعت أصواتهم وهي تصيح بالمناقشة حينا وتخفت
بالحديث الهامس حينا آخر . . . وازداد نشاط الخيال فراح
يجوس خلال الماضي . . . فرأت نفسها فتاة في المرحلة الثانوية
فائرة الأنوثة مفعمة بالشباب والحيوية كالكأس الجميلة المترعة
بالشراب الصافي . . . . رأت تلك العيون التي كانت تتفرسها
معجبة حيناً ومشتهية حينا آخر بل رأت عيون زميلاتها اللواتي
كن يستكثرن عليها ذلك الشعر الكثيف الناعم الذي ينسدل من
خلفها ليلاً بغير نجوم . . . وذلك الجسد الذي تصرخ فيه
الأنوثة ويضج فيه الشباب . . . . وابتسمت الفتاة الحائرة . . .
بل استخفتها النشوة – فانتزعت بصرها من ذلك الماضي البعيد
وراحت ترى به حنانا دافئاً للصغيرين اللذين تعلقا بأهدابها –
ورأى الصغيران ذلك الومض الحاني الذي التمع في عينيها
فأطمأنَّا قليلاً . . . راح شقيقها يسأل (سنذهب إلى أمنا .. إلى
. . . أمنا) . . وبانحناءة حملت الإجابة إليه – فاستبشر
الغلام ووثب وتمايل كأنما أراد أن يوقع على أرض القطار
لحن المرح الجديد . . . . .

وراحت الأخت الصغرى تضرب كفا بالأخرى وهي تصيح بعبارات الفرح . . . ولكن أميرة لم يطل وقوفها في ذلك الواقع الحاضر – وضاقت بالقطار وضجيجة وتلك الوجوه التي دفنت في الصمت . أو شغل أصحابها بحديث تقتضيه رحلة السفر . . . . ! !

واستنامت إلى موكب الصور من جديد فراح يطوف بها زاخراً يحمل الأمل إلى نفسها والاشراق إلى وجهها ولكن الصور لم تكن غير شريط تسجيل قد التقط الجميل والقبيح . . . . ! ! !

. . . . سرعان ما انتقل نشاط الخيال إلى البيت ذلك الذي كانت تجد فيه الإهانة تنصب على رأس أمها بغير رحمة ولا هوادة ، فيصفع ذلك الكبرياء الذي تجمع لديها فيتهاوى في تخاذل وضعف ومهانه وتبكي . . . ! ! وقد تجود بكلمات فيها السخط والثورة . . . ولكن ذلك الأب القاسي – لايدرك قيمة لمشاعرها فينهال عليها هي الأخرى سبا وضربا –

كم كان بارداً قاتما ذلك البيت . . . . ؟؟ وكم كان الطريق دافئاً زاخراً . . . ؟ ألم يكن يحمل إليها نظرات الاعجاب والتقدير بل التقديس أحيانا – كم كانت المدرسة دافئة شيقة – تتمرغ فيها وتتلفع بتلك النظرات الصافية التي راحت تغطي جسدها وتلثم وجهها .

. . . . أمسكت الأخت الصغرى بأهداب أميرة وشدت قبضتها على ثوبها حتى تنبهت أميرة إلى ذلك العالم البغيض من

حولها – ورفعت الصغيرة وجهها إليها وهي تلف بذراعيها فخذ أميرة خائفة مروعة من تلك السرعة التي انطلق بها القطار – ربتت أميرة على رأس أختها وهدأت من روع الصغيرة بكلمات خاوية يرددها الناس بلا أبعاد في مثل هذه المواقف– ومد أحد الجالسين يديه إلى الصغيرة يريد أن يحملها فرفضت وتشبثت بالثوب : (سنصل حالا ياماما) لفظتها أميرة بغرض تهدئة الصغيرة وقد شجعتها سرعة القطار على ذلك الأمل . . .

ازدادت حركة القطار . . وازدادت معها حركة الخيال . . . ولكن الخيال كان أخف وأسرع فسرعان ما جاوز سرعة القطار ودخل إلى البيت حيث تقبع أم أميرة تشكو لشقيقها ماحدث بينها وبين زوجها – تسرد عليه هذه الشتائم وتلك الإهانات . . . !!! والأخ ماثل أمامها يمد السمع في غير تحفز أو اكتراث ويبعثر النظرات متكسرة على الأرض – راحت تسرد . . . !! وراح ينصت – رأت الأم سحابة من التجهم تأكل اشراق وجه أخيها – فراحت تؤكد أن زوجها أصر على طردها بل حال بينها وبين البقاء في بيتها بكل الوسائل الممكنة . وراحت الأم تسرد . . . !!! وخيال أميرة متحفز في الهواء يرى ويسمع ويجول في تلك الشقة الضيقة في أسفل العمارة المتواضعة في ذلك الشارع الصاخب المزدحم من شوارع طانديا . . . رأى خيال أميرة زوجة الخال وهى ترمي أمها بنظرات مستنكرة – تروح وتجيء في الشقة وقد كست وجهها غيرة طحنت الأمان في قلب الأم الجريحة . . . .

عاد الخيال إلى أميرة وقد اغترف لها من بحر الظلمات قدرا هائلا حجب عنها الرؤيا وألقى على ذلك الموكب الحافل بالصور كفناً رهيباً بارداً خانقاً . . . . أحست أن أصابع من الصلب البارد تنهش منطقة عند أسفل قلبها ويزداد النهش وتزداد المنطقة اتساعا . . . ثم تصبح فراغا يترنح القلب فيه برهة ثم يهوى في ذلك الفراغ الجريح . . . وبغير إرادة تضع أميرة كلتي يديها على أسفل قلبها وتضغط عليه كأنما تريد أن تحول بينه وبين السقوط — ثم تمتد تلك الأصابع الكريهة إلى نحر الفتاة فتضغط في غير رحمة ويزداد ضيق الفتاة وعجز هاعن المقاومة وتنظر حولها لعلها تجد ملاذا لقد خارت قواها وامتص الخوف من المستقبل كل طاقاتها . . . وراحت عجلات المجهول تدق رأسها . . . ولكن . . . . — شيئا آخر أكبر من المجهول — بل أكبر من الحاضر المعلوم والماضي اليقين — راح يصل إليها، دوي هائل راح يصفع وجه الصمت ويشق الجوزاء ويدور بموجات الأثير — ثم ظلام يجثم على العيون كثيفا باردا مريحا — ثم أكف حانية تسد الآذان وتقيم بين ضجيج الحياة وهدأة الفناء سورا كثيفا لايخترق . . . وراحت أصوات خافته تنبعث من جنبات القطار في أنين جريح — ونظرات هزيلة صفراء تتعلق بأذيال الحياة . . . . . !!!؟!

. . . . . فقد تحول القطار الهادر منذ لحظة . . . إلى أشلاء من الحديد والرماد مستلقية على جانبي القضبان . . . . .

تداعي الألوان

محمد عبد الله بافرط

أخذت الفرشاة تنتقل داخل اللوحة برشاقة . . . اقتربت من العينين . . شعر بقلبه يلتصق بالفرشاة وهي تمر فوق عينيها ثم كساهما بهمسة منفعلة . . . ابتعد عنهما ليراهما عن بعد... تأرجحت في أعماقه ابتسامة شفوفة . . . هجس في نفسه :

– هكذا نظرت إليّ ذات ليلة من ليالى الشتاء . . . كان يفصل سطح منزلنا عن منزلها جدار ليس بالعالي ولكنه كان يسمح – رغم سنيّ الصغيرة – لقامتي الفارعة المتطاولة على أطراف أصابع قدمي بالنظر إلى سطح منزلها . . . في تلك الليلة المقمرة رأتني فخفت نحوى . . . سلمت بيدها . . نسي الجدار اليدين الممتدتين . . قالت شيئاً . . لا أدري لماذا يتيبّسُ لساني في مثل هذا الموقف . . . ثم تقطع لقاءنا صفقةُ أمها مستعجلة حضورها فتحمل إناء الغسيل وتبتلعها الدرج المظلمة .

أحضرت زوجته كوب الشاي وهي لاتكف عن الشكوى والتبرم . . . حركت لسانها كيد الهاون ملعلعة :

ـ أريد أن أعرف الفائدة التي تجنيها من هذه اللوحات . . . كم دفعوا لك في اللوحة التي رسمتها في الشهر الماضي ؟

ـ مائة وخمسين ريال .

لم يعجبها الرقم رغم تفخيمه . . فسألت :

ـ هل تصلح المائة والخمسون ريالاً هذه الغسالة التي تقدح شرراً كلما تحركت ... أرجو أن تبحث لك عن عمل في المساء .

ـ آه . . . أنت لا تفهمين الفن . . . أنت مثل الذين يعيشون في الادغال يبيعون الجواهر بحفنة من الودع .

ذهبت وهي تركل الأرض ، بحنق ثم صفق الباب خلفها . . . عاد إلى لوحته ومرر الفرشاة على الشفتين . . . وصبغهما بضحكة منورة . . . تمعنهما دقائق . . . تذكر كيف كانت تبدع تلك الشفتان حروفا لها رنين الفضة .

ذات ليلة حملت إليه أضواء القمر وموجات النسيم الباردة صوتها :

ـ أكاد أسمع خطاك في المستقبل ولكنني خائفة أن تبتعد .

– أنت تخافين المجهول .

– . . . .

– لعله الوهم أو الخيال .

– ما الفرق بينهما ؟

– الوهم ينطلق من داخل اعماقك أما الخيال فينطلق من عقال ذهنك .

تخلل ابتسامتها مثات النجوم اللامعة ثم هتفت مذكرة :

– الليلة باردة . . .

– إنني لا أشعر بالبرد ... فأنا أحتمي بدفء النجوم .

ابتسمت مجاملة . . . ربما لم تفهم ما يقصد .

– أنت تمزح . . . . هل أعطيك عباءتي لتحتمي بها من البرد .

– لا . . شكراً . . . أنا أخاف سخرية القمر . . . لقد نسيت أن أسالك لماذا تلبسين عباءتك ليلا في السطح ؟

قالت مازحة :

– حتى لا تراني .

كان يقف داخل أعماق ذكرياته ذاهلا عن ما حوله . . . ثم شعر بصوت زوجته يشق هذه الأعماق :

ـ أين وضعت البنزين ؟

ـ في الحمام .

ـ حسناً . . . أرجو أن تلبس شيئاً يمنع تساقط الألوان على ملابسك . . . لقد أتلف البنزين أصابعي .

ـ سأفعل . . . .

ـ لدي ضيفة . . . أرجو أن تحضر حق بسكويت .

ـ أين حسن ؟

ـ يلعب في الشارع .

ـ نادِه ليحضر لكِ ما تريدين .

ـ وي ! ! . . . هل تريدني أن أرفع صوتي في الشارع منادية ؛ ؟

ـ أنت مزعجة .

خرج متضايقاً ثم عاد وحمل فرشاته . أخذت الألوان تجسم يدها وتضفي عليها مسحة من النعومة الجميلة . . . أخذ ينظر إليها في مناجاة طويلة . . . تذكر كيف يسلم عليها فتترك يدها في يده حتى يتعبا من الوقوف على أطراف أصابع رجليهما . . . لم يشعر بزوجته التي حضرت ووضعت يدها على ذراعه وأخرى على كتفه . . . كان خارج مشاعره . . . فوضع يده على يدها . . ابتسمت زوجته للمسة الحنان . . .

فلما شعر بوجودها جفل . . . فضحكت منه ثم صاحت في اندهاش :

– إنها صورتها ! !

– من هي ؟

– نور . . . جارتنا .

– لا ياشيخه . . . هذه صورة أي امرأة في الدنيا

حملت كوب الشاي وغادرت الغرفة . . شعر بحلقه يشقه الجفاف فذهب نحو المطبخ حيث الثلاجة ليشرب . . . في طريقه التقت به زوجته فطلبت منه أن يختفي لمدة دقيقة في الحمام لكي تغادر صديقتها المنزل . . . دخله ممتعضاً . . . سمع زوجته وضيفتها تثرثران بينما هما تتجهان نحو الباب . . . تذكرت شيئاً وتذكرت صديقتها شيئاً آخر . . . واستمرتا في الكلام . . . تضايق في حبسه الصغير . . . أراد أن يصرخ ليستعجلهما لكنه تذكر هذا الصوت . . . إنه صوتها . . . أصاخ السمع مرة أخرى . . . عرف أنه صوت نور . . . . لاحظ وجود الشرر متبوعاً بقرقعة أسفل الغسالة . . . عاد يتصنت... تبدد الضيق داخله . . . وفجأة صرخ . . فشدّ الزوجة . . . كانت النار تشتعل لاشتعال جالون البنزين . . . دفعت الباب بكل قوتها . . . رفعت إبريق الماء ودلقت ما فيه فوق زوجها...

ازداد اشتعال النار الملتهبة في الحالون القريب . . . هبت الضيفة مسرعة نحوهما فمنعت الزوجة من دلق الماء على زوجها وألقت عليه عباءتها ولفته بها فأنطفأت النار . . . تعاونت مع الزوجة وحملتاه إلى السرير . . تنبهت نور بأنه لايجوز أن تظهر أمامه في هذه الصورة . . . كان معطفه قريباً منها فلبسته . . . اتجهت نحو التلفون لتدعو الطبيب . . . كان القمر هذه المرة وحيداً يطل من النافذة كأنما تذكر شيئاً أتى ليقوله .

حب بلا لقاء

عبد الرؤوف أحمد العبد الواحد العباسي

ازداد الليل وجوما وأوغل في صمت أشد رهبة من ذي قبل – وعلى الجبال المترامية المنتشرة حول أسوان الجديدة – جثم الليل صامتاً كالموت ، وقد لف الوجود في غلالة رقيقة من الصمت لا تشف إلا عن أصوات خافتة لهوام الليل أو حشرات الأرض .... طال « بإيفا » الانتظار وأحست بأصابع الملل تتحسس عنقها وقالت بصوت يكاد يكون مسموعا .

. . . . لم يأت هذا المصري الغبي . . . . ألم يعدني بالحضور . . . ريثما ينتهي من عمله بعد منتصف الليل ؟؟؟!!!

وراحت عيناها تغزوان الظلام وهي تحملق في ساعتها وقالت بلغة انجليزية . . . الثانية عشرة والنصف . . . !! .

ولفها أمل جديد – خيل إليها أن أذنيها تسمع وقع أقدام قادمة من ناحية فندق كتراكت – ورفعت قامتها وراحت

تتلصص بأذنيها ، زاد الصوت وضوحاً ولاح لها عن كثب شبح يتدحرج في الظلام ودق قلبها من جديد وغلت الدماء في عروقها وأحست كأنما تنتعش برائحة المصري الأسمر الذي أسكرها منذ الصباح — أسكرها بنظراته المتسائلة المتفرسة التي كانت تتحسس جسدها في جرأة ودون استحياء — أحست ساعتها بنشوة تغمر قلبها — هذا القلب الذي لم تهبه لأحد بعد — وقد سلخت الثلاثين وسبق لها الزواج . . . . وسرقت من ذكرى كل عمرها ساعات . . . ولكنها أحلى من ذكريات ثلاثين عاما الماضية . . . صحت على أحد خدم الفندق وهو ينظر إليها في تساؤل ثم يمضي إلى حال سبيله دون أن ينبس ببنت شفة . . . . . تململت من جديد . . . وكلت قدماها — خمسون دقيقة قد مضت وهي تنظر بلا جدوى ورسل الظلام تتهادى في الفضاء العريض ستائر بلا ثقوب ، والكون صامت ورأسها يدور . . . . وتدور في عنف ويضج الدم في عروقها وتهتف بلهجة باريسية . . . أوه ذلك . . . ذلك الحقير !!!

وعز عليها أن يكون حقيراً وكأنما أرادت أن تسحب وصفها له بالحقير فهمست شبه حالمة . . . . . !!!

. . . . ذلك الجبار . . . . الجبار الحبيب . . . .

ودغدغ صدرها حنان ملائكي عجيب لفها بغلالة بلورية من الأحلام وطافت برأسها أعلام مصر القديمة ، . . . . تقاطرت على ذهنها صور العظمة التي عرفتها للمصريين فيما قرأته من

كتب التاريخ وشعر الرومانسية ـ تذكرت أيام كانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ـ تحلم بفارس أحلامها وهو يطوف بها على صهوة جواده عبر وجه مصر الصبيح . . . كم كانت في حاجة إلى أن تتمرغ في دفء شمسها ـ ؟ ! ـ وتجري بكل قوتها في صحرائها المتبرجة التي لاتني تغرى السماء بجسدها العاري الذهبي ولكن . . . ! ! لكن آمالها كلها وئدت عندما تزوجت الثري العجوز صاحب مصانع الكروم في جنوب فرنسا ـ وأنجبت منه ولداً . . . . وأصبحت أماً لولدها وطبيبة لزوجها العصبي العجوز ، ولكن آمالها لم تمت وخيالها الجموح لم يستكن وثورة الشباب كانت أقوى من أن تدمرها شيخوخة زوجها . . . . و . . . . . و . . . .

ومات الزوج !!! وورثت ثروته الطائلة !!! ثم مات من بعده ولده الذي كان هزيلا ضعيفاً منذ أول يوم من ميلاده ـ وأصبحت « إيفا » حرة من جديد ـ تطوف العالم مرة كل عام ـ حياتها حل وترحال ، لم يكن يعز عليها فراق بلد كما يعز عليها فراق مصر . . . . ولم تكن أكثر شوقا للعودة إلى أي بلد كما كانت دائماً لمصر . . . . كانت تحس أن في هذا البلد يكمن سر عظيم ترتبط به حياتها ـ لم تكن تحس أنه في باريس ـ محل أقامتها ـ يمكن أن تولد بذرة تحمل إليها ثمرات حياة طالما داعبت خيالها . . . . . . ! ! !

اسندت ظهرها إلى جدار فندق كتراكت وطوحت إلى

الوراء بشعرها الحريري الذي يموج هو الآخر في حلم ناعس ، وانحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان . . !! . . . غداً ستغادر مصر – !!!!! ولن ترى العيون التي تحسست جسدها هذا . . الصباح بجرأة وفي غير استحياء – لن ترى الشاب الأسمر الذي كان يقف أمامها ممشوق القوام يتفجر كل ملمح من ملامحه برجولة سخية بالدفء والحب – إنها لا ترتبك أمام عيون الرجال كالمصريات . . والهنديات . . والصينيات . . التي لا حظت عليهن ذلك في تجوالها . . . . إنها أوروبيَّة جريئة ومع ذلك ارتبكت . . . وحارت حينما كانت تتهادى في ثوبها الفضفاض هذا الصباح ، واعترض طريقها هذا المصري الأسمر – اعترضه بلطف وهو يهمس بلكنة انجليزية . .

هذا رائع !! وردت عليه في بساطة الأوربيات .

يعجبك هذا الثوب ؟؟ ولكنه رد عليها بما لاتنتظر .

ليس للثوب قيمة . . . . بغير من ترتديه !!!

وأسقط في يدها ولم تدر بما تجيب . . ولكنها استجمعت قواها وهمست كمن تطير على أجنحة من النور .

أنت مقيم هنا ؟ هل . . . هل أنت بمفردك ؟؟

ثم سكتت وأغمضت عينيها لحظة كأنما تخشى أن تفلت سلسلة رائعة لمستقبل فضي يصب رقائق من الضياء . . . ولم يجب الشاب المصري فقد أذهله السؤال لما فيه من جرأة . . .

ثم دلفت إلى حجرتها وهي تتمرغ في شعاعات دافئة راحت تغطيها وتحنو عليها وفي أصيل اليوم نفسه . . . . هبطت إلى البهو في ثوب أكثر إغراء وأشد سحراً وراحت تبحث عنه بين المارة في البهو الفخم ، وكادت تفلت منها صرخة عندما بصرت به قادما من طرف البهو – وراحت تسرع الخطى إليه لعلها تلتقي به قبل أن يتوسط البهو فيصبحان تحت رحمة النظرات المتسائلة في فضول و . . تسمرت . . وتسمر في مكانه هو الآخر . . .

كان يداعبها في الصباح مداعبة جريئة . . . لاهدف منها فإذا به يلقي ببذرة في أرض خصبة سرعان ما نمت وترعرعت وتدلت ثمراتها دانية . . شاقه أن يقطف منها ولكنه تذكر زوجته وولده – راحت تلعب برأسه آلاف . . الأفكار – . وتثور في نفسه . . مئات الثورات . . . . ولكنها قطعت عليه تفكيره عندما اقتربت منه وألقت عليه بتحية المساء . . . . رد عليها مشدوها لم يدر لم مد إليها يده . . . . ؟ !! وأحس بملمس يدها رقيقاً عذبا هاشا يكاد ينفطر بين كفه وأصابعه ، كأنما كانت يده منطلق بطاقات كهربائية تفوق طاقات السد الذي جذبها إلى مصر هذه المرة – وانتظم جسدها تيار كهربائي يهدر بالحياة ويموج بالأمـــل ، ثم همست وهي لا تكاد تتماسك . . . .

قالت . . . هل أنت . . . بمفردك . . . هنا ؟؟

لا . . . . . لا . . . . . لا . . . . .

ما رقم الحجرة التي تقيم بها . . . . ؟؟

وأحس ببرودة تتخلل جسده وتخنق صوته . . وكاد يسألها . . . هل أبدو أنيقاً هكذا حتى يظن بي أنني أحد نزلاء الفندق . . . وازدرد ريقه وقالها دفعة واحدة . . . أنا . . . أعمل . . . بالفندق . . .

لم يكن يبالي بآلاف الحسناوات يحادثنه كل يوم بحكم عمله فما باله يرتجف لأسئلة إيفا الجريئة . . . ونظراتها الناعسة . . ! ! التي سألته في شبه تطلع .

حتى يمكن أن أراك ؟ . . . أتعرف رقم حجرتي . . (١٤٠) لم تقل لي متى تنتهي من عملك ؟ . . . . . ولم ترد أن تتوقف – كانت تود أن تقول له كل شيء . . . كل شيء دفعة واحدة . . . وبلا توقف . . . أليس هو المصري الأسمر الذي كانت تحلم به منذ أن كانت في الثامنة عشرة من عمرها . . . ولم تلتق به إلى الآن . . ؟؟ ألم يحن لها أن تستجيب لحلم قديم أيقظته الحقيقة الماثلة أمامها ؟؟ ! ! !

ليس معي إلا أمي وسكرتيرها . . . وأنام طبعاً بمفردي في حجرتي . . ألا يمكن أن تزورني في الطابق العلوي ؟؟

تقاليد العمل تمنعني من ذلك ياسيدتي . . . وأنا متزوج ولي

ولد . . . وفُتَّ في عضدها لسماع آخر عبارة وحدجته بنظرة فيها مزيج من الإشفاق والشوق والحب والكراهية . وعض أحشاءها ألم دفين ولكن الأمل راح ينعشها بروحه الرياضية عندما سمعته يقول في شبه همس .

بعد منتصف الليل أنتهي من عملي . . . وممكن أن تنتظريني أمام الباب الرئيسي للفندق – سيكون الليل هادئا ساكنا – فننطلق إلى حيث تريدين دغدغ الأمل الحلو صدرها من جديد ثم مرق من أمامها في قوة واعتزاز تنم خطواته عن ثقة وقدرة لاتعرف المستحيل وتعلق نظرها به – تتملى كل حركة فيه حتى غاب في منعرجات الفندق .

حاول نظرها يزحزح الظلام ليتعرف على الساعة ورفعت معصمها الغضّ الذي كان يتموج في الظلام كشهاب من الشهب . . . . الواحدة والنصف يا ألله ! ! ! وتململت مرة أخرى ، ورسل الظلام تهيم في الفضاء الفسيح ستائر بلا ثقوب تتخللها تمتمات الليل وهمهمة اللاشيء . . . . وتلفتت حولها ثم أعادت بصرها إلى باب الفندق ... الذي ظلت ترقبه ساعة ونصف ! ! ! ثم دلفت إلى الداخل وراحت تصعد الدرج إلى حجرتها تتلمس الطريق إلى الحجرة في وجل وخوف . . . والندم والحسرة واليأس وكل معاني الظلام راحت تغطي عينيها وتحجب عنها الرؤية وعندما فتحت حجرتها رأت من خلال دموعها شبحا ينتظر في قلق وما أن اقترب واقتربت منه . . . حتى تحول

إلى خيال يرقص مع تحركات ستائر النوافذ . . . و . . . كادت تضحك من نفسها ومن تصوراتها وارتمت على سريرها تلتمس لجسدها المنهوك الراحة بعد أن ظلت في العراء ساعة ونصفاً وراحت تعجب من نفسها ومن سرعة استجابتها — كما راح قلبها الغض يدق كلما تذكرت أنها راحلة غداً !!! وتمددت على الفراش الوثير ، راحت ترقب سقف الحجرة . . . . وصوراً عديدة ترقص في خيالها ثم تختفي عنها رويداً رويداً حتى لفها النوم بذراعيه الحانيتين .

في الصباح حينما كانت «إيفا» تهبط درج السلم لمحت على البعد طفلا جميلا يجري في البهو . . . ببراءة يسابق نفسه ثم يدور في نهاية البهو ويعود متدحرجا والسعادة تملأ جانبيه وإشراقة البشر تظلل وجهه الصغير الأسمر — وتعلقت عيناها بالطفل الأسمر . . . ثم راحت تهرول إليه وتفتح له ذراعيها وتناديه بعينيها وحركاتها — وهي تتمتم بألفاظ لا يعيها الطفل ولكنه انجذب إليها وزحف نحوها فرحا متهللا ، وما أن طوقته بذراعيها حتى تعلق الطفل بعنقها وراح يقهقه ملء فيه — وتفرست وجهه المصري الجميل — ثم استولت عليها دهشة مذهلة . . . أنه هو . . . هو بعينه . . . هو ذاك المصري الذي كان يغازلها بالأمس . هو . . . هو بعينه ذاك الذي ظلت فريسة انتظاره ساعة ونصفاً تحت ظل سماء وفوق أرض لايتحرك في فضائهما غير النيل الموحش والصمت الأخرس وصور

تغريها بالأمل حينا وتخنقها باليأس حينا آخر – وضمت الطفل إليها تتفرسه وقد شرد ذهنها – وراح يتخبط بين الحقيقة والخيال ولم تغب في شرودها فقد صحت على صوت من خلفها . . . يحييها تحية الصباح بلغة انجليزية والتفتت خلفها . . . فإذا قامة طويلة لرجل ممشوق أسمر – يتفجر كل ملمح من ملامح وجهه برجولة سخية بالدفء والحنان فغرت فاها وسألت في همس .

. . . أهو أنت ؟؟ ! ! ! رد عليها وهو لايحول نظره عن الطفل الذي بين يديها وهتف بصوت ينم عن أسى لحيرتها وحبها المجهض . . . نعم هو أنا . . وهذا ولدي . . ! ! . . . . أليس جميلا . . . ؟؟ .

همس القبور

علي المحسن

(عندما نري الحياة من داخلنا ، وقل ما لا نراها كذلك)

نظر برهبة إلى ذلك العالم . . عالم الأموات ، بجفن مريض مرتعش ، يلتفت في كل الانحاء ، بقلق واضطراب ووجل . .

فظن لأول وهلة ، أنه رأى القبور كلها تتراقص أمامه ، في هستيريا عجيبة . . تصطخب وتختلط . . ثم تعود ، وتهدأ كما كانت . .

وكأن همس الأموات ولغطهم وهتافاتهم . . كلها تملأ أذنية . . .

فكان هذا الهمس واللغط والهتاف ، يذكره بتلك الليلة.. ليلة زفافه ، عندما قبض على يدها ، وقال لها هامساً :

— وأخيراً أصبحت ملكي أنا . . ملكي وحدي .

فردت بجفن كسير ، في استحياء :

ــ أجل . . .

ملكك وحدك . .

ثم خيم صمت طويل ، قطعه بصوت مرتعش ونظرات ساهمة :

ــ أخشى أن يكون الذي نحن فيه حلماً عابراً . .

ــ بل . . نحن في حقيقة . . .

ألسنا في حقيقة ؟ ؟

فأطلق آهة ، واستطرد قائلاً :

ــ إنني أخشى الحقيقة . . .

أريد أن يكون حلماً طويلاً لاينتهي . . .

حلماً طويلاً لاينتهي . .

* * *

انتزعه من خيالاته ذلك الظلام الذي يخيم على المقبرة . . الذي كان الرائي فيه لا يكاد يري مكان أنفه . . والصمت الرهيب والسكون الثقيل . . .

فلم يسمع وهو يدخل فيها ، إلا صوت خطواته ، وهو يضعها أو ينتزعها من الأرض الموحلة . .

كان يطوي الأرض خلفه ، متجهاً نحو قبرها في زاوية المقبرة هناك . . فجعل يدوس القبور التي في طريقه ، فيخال أنه يحطم جماجم الموتى ، وصدورهم ، ويسمع صوت العظام تتكسر تحت قدميه . . وأنهم يصرخون ويستغيثون . وهو ماض يلتمس الحائط كي لا يضل الطريق إلى القبر في هذا الظلام . .

كانت استغاثاتهم تطارده . . وهو يسمعها ويحسها خلفه ، لكنه ما كاد يقترب من قبرها ، حتى هدأت جميع الأصوات..

وبدأ الصمت يستبد بالمقبرة من جديد . فكان أول ما أوحى إليه به هذا السكون ، يوم لقائه بها . . إذ رآها حين دعاه أخوها لحضور عيد ميلاده ذات أمسية .

فلما كان — ولا يدري كيف كان — أول لقاء له معها ، كان كلامهما الصمت . .

كان يود لو تقول شيئاً . . أي شيء — تتكلم عن نفسها .. عن أخيها . . عن كاتب أو شاعر . . أو أي شخص آخر . .

يتمنى لو تسمعه شيئاً مما قرأته أو حفظته . . أو . . لو تسأله عنه هو . . اين يسكن ؟ ما هي مهنته مثلاً ؟ أو أي شيء من هذا القبيل ، وسيكون بذلك في غاية الرضى . .

لكنها كانت تقسو عليه بصمتها ، كما تقسو عليه الآن بصمتها ، وهي هنا في هذا الجدث الطاهر .

كانت لاتنبس ببنت شفة ، وكان هو كذلك أيضاً . : مع أنه كان يود لو يقول لها أشياء وأشياء . .

* * *

التفت إلى القبور ، فألفى الأموات كأنهم خرجوا منها يرقصون ويتصايحون أمامه . . فظل ينظر إليهم في ذهول ، لكنه لم يحرك ساكناً . .

كان صراخهم مختلطاً ، ومع ذلك استطاع أن يميز صوتها من بين أصواتهم جميعاً .

كان خافتاً في البدء ، لكنه اشتد أخيراً وطغى على جميع الأصوات ، فخال المقبرة حينذاك ، هي التي تئن وتصرخ وتستغيث . .

إنه يذكر يوماً سمعها فيه . . أو شعر ساعتئذ ، أنه سمعها تصرخ وتئن ، تستغيث بفزع . .

كان ذلك حين تهيأت للولادة . . وكان هو في تلك الساعة ، يطوي بهو المستشفى روحة وإياباً ، في اضطراب عنيف . . فلا تكاد اللفافة تستقر بين شفتيه المرتعشتين ، حتى يطفئها ، ويشعل غيرها .

كان عليه أن يهدأ ، إلا أن السكون المخيم على المكان ، كان

لثقله يبعث على القلق ، ويثير في النفس كوامن الرهبة والخوف حيث لا موجب لذلك .

كان يردد نظره بين الحين والآخر في الباب ، وحيناً آخر في ساعة الحائط المعلقة أعلاه . .

* * *

أفاق . .

وتلفت هنيهة . . فرأى المقبرة هادئة ، فخيل إليه أن الأموات قد دخلوا قبورهم ، حداداً . . وهو يذكر لهم ذلك اليوم الذي هجرته إليهم . .

كان الفجر قد بدت تباشيره ، وقد عادت إلى نفسه السكينة نوعاً ما . . التفت بدهشه ، وقال في نفسه :

ـ أين أنا ؟

ثم رفع رأسه بعد لحظة صمت ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهته وأردف :

ـ ويحي ، هذا بستان العم أبي يوسف . .

أين أنا من المقبرة .

حول القلعة

حسن أحمد النمر

لم تكن عينا « السُّومي » قد انقطعتا عن النظر جهة القلعة منذ الصباح . لكن لم تقعا على أي إنسان قد توقف عند القلعة ، رمى ببصره نحو حماره الذي كان يتمطى بارتياح فأشاح عنه فقد كانت عيناه لم تفترا عن النظر إليه هو الآخر . . أرسل بصره مرة أخرى ناحية القلعة ممتعاً عينيه بأطياف الحشود المتلاطمة حولها منذ يومين .

كان اليوم الثالث وتكتُّل الناس حول القلعة الجنوبية ـ الشرقية للحصن القديم بدا أكثر منه في اليومين السابقين ، كما بدا « السومي » أكثر همة ونشاطا في تلقي كل قادم ليلقي على سمعه الكلام الذي ملأ به أذن كل من جاء ليشاهد هذا « الداب » الذي قد أزعج الأهالي المجاورين للقلعة بفحيحه البغيض .

تجمهُر الناس يزداد ويزداد ، وهرجهم بدا كالطنين حتى لم يعد يفهم منه شيء . . و « السومي » يشحذ كل ما يستطيع من همة لينتقل بين الحشد الكبير ممسكاً بعصاه التي يقود بها حماره الذي استراح منذ يومين بسبب وعكة أصابته حينما تعثر في حفرة لم يفطن لها « السومي » كما لم يشعر بها الحمار هو الآخر . تغلغل باذلاً جهده ليصل إلى الجهة الأخرى فقد لمح شرذمة من الناس نزلت تواً من سيارة . تقدم « السومي » منهم محتفياً بهم كبائع سلع قديمة يستقبل زبائنه ، قال بكل ثقة وهو يشير بعصاه ناحية ثقب توسط في كبد القلعة : —

— في ذلك الثقب . . له قرنان ولسان مشقوق . . لا أقول لكم إنني سمعت به مجرد سمع . . أنني رأيته بعيني . . أن بمقدوره أن يبتلع انساناً . .

همهم أحدهم مستزيداً وهو يحدق في عيني « السومي » .

— يا كافي الشر ! . ما الذي سيفعلونه إذن ؟ ! إنه خطر .. لابد من القضاء عليه . .

— يرابط شرطي هنا . . لكنه لم يلبث أن غادر المكان بعد سويعات قليلة . . كان ذلك قبل أمس صباحاً . .

قال آخر وقد أنزل عينيه اللتين كانتا متعلقتين في الثقب تنظران بخوف ورجاء في آن واحد أن يطل « الداب » . . أنزل عينيه من فوق الجدار الطيني ليلقي ببصره فوق وجه

« السومي » الذي كان مشابها للجدار في لونه الحنطي والخدوش والحفر التي تبددت فوق كل منهما بانطلاق غير منتظم . . ثم قال :

– تقول إنك رأيته عياناً . . وأن له قرنين ولساناً مشقوقاً . . لكن نحن سمعنا أنه في حجم التيس . . ويصدر مأمأة كالتيس . . .

ابتسم السومي مفرجاً شفتين ناشفتين بان من خلالهما أسنان صفراء مثرومة :

– ما سمعتم غير صحيح . . إنه كما أخبرتكم . . أما صوته فتستطيعون سماعه لو أتيتم قبيل منتصف الليل . . إنه يصدر فحيحاً مسموعاً . .

تعالى نهيق حمار فقطع « السومي » حديثه واستدار ناحية الشرق ولملم جفونه مضيقاً عينيه ونظر تجاه « الخرابة » ثم لم يلبث أن التفت ناحيتهم مواصلاً :

– صوته مسموع واضح . . إنه صوت « دابّ » لاشك في ذلك . . .

تساءل أحدهم :

– ألم يدخلوا الحصن ليبحثوا عنه . . .

ـ دخلوا وبحثوا عنه . . وصعدوا على القلعة . . إنه في داخل الجدار . . ليس له طريق إلا هذا الثقب . . ربما يكون به . . أقصد بالحصن . . أكثر من « داب » . .

ـ أكثر من « دابّ » ؟ ! أتقصد أنه من الممكن أن تكون عائلة بأكملها . . ؟

ـ أجل فقد خرج منذ سنوات أفعوان . . ذو قرنين وفروة ممتدة فوق ظهره . .

ـ عسى ألاّ يكون قد أضر بأحد . .

ـ كلا . . فلم يكن ليكمل عبور هذا الشارع حتى كانت سيارة شحن قد دهسته فأودت بحياته . .

سأله آخر وعلامات الاشمئزار والخوف تضطرب فوق وجهه :

ـ أرأيته أنت ؟ !

فبادره صوت رجل في الأربعين من عمره كان بالقرب منهم دلّ هندامه على أنه أحد الأهالي المجاورين للحصن حيث وقف مرتدياً مئزراً وفانيللا وطاقية أطبقت على يافوخه كالمذعور . . بادر قائلاً : ـ

ـ كثير من الناس رأوا تلك الحادثة . . إنها لم . .

وهنا ارتفع زعيق ندّ عن مجموعة من الصبيان فساد صمت رهيب فاتجهت الأنظار شاخصة تجاههم تستطلع ما حدث ، وكانت العيون قد سبقت لإلقاء نظرة على الثقب بوجل ورجاء أن ترى « الدابّ » يطل بقرنيه ولسانه المشقوق ولم يمض برهة قصيرة حتى عاد الهرج وعاد الرجل مواصلاً حديثه حينما اطمأنوا بعد أن علموا أن ماحدث مجرد لعبة لشدّ انتباه هذا الحشد وتخويفهم ، واصل الرجل فيما انحنى « السومي » ليلتقط عصاه من على الأرض :

ـ لم يكن ذلك منذ زمن بعيد . . منذ سنوات معدودة حدث ذلك . . شاهده الكثير قال شاب معلقاً وهو يرمي بنظرة خاطفة على الثقب :

ـ ليس غريباً أن تسكن مثل هذه الأفاعي هنا . . فالحصن قديم ومهجور . . لذلك يسهل على هذه المخلوقات أن تعيش دون أن تزعج . . لكن من أين تحصل على غذائها ؟

قال الرجل وهو يزيح « طاقيته » فوق يافوخه إلى الأمام :

ـ الله خلقها وهو متكفل برزقها . . ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها . . إنها تأكل الطيور والفئران التي تعيش بداخل الحصن .

قال أحدهم وهو يهرش دقنه :

ـ ولكنها غير كفيلة بأن تشبع نهم هذه الأفاعي . .

وهنا علق « السومي » بثقة وتأكيد :

ـ إنها تستطيع العيش بأكل التّراب . . إذا انعدم الطعام . .

كادت أن تطفر ضحكة من الجميع ولكن أحداً لم يضحك ولا سيما وأن « السومي » قال ذلك بجد وعدم تردد ، وإن كانت طغت على شفتي أحدهم ابتسامة سرعان ماتلاشت عندما ارتفعت عيناه تجاه الثقب مع بقية الأعين عندما صرخ صبيّ :

ـ انظروا ! طلع « الداب » !

فشدّ الثقب أبصارهم . . لكن شيئاً لم يحدث . . غير أن نهيق حمار ارتفع فالتفت اثناءه « السومي » ناحية « الخرابة » فعرف أنه صوت حماره يطلب طعاماً لكن رجله المصابة حالت بينه وبين الوصول إلى البرسيم ، طافت أمام عينيه صورة حماره المنبطح ورجله المتورمة فكست وجهه لفحة تجهم وألم ، وسحب نفسه بجهد من بين الناس المتكتلة ، يدفعونه تارة ويدفع هو أخرى . . ولغطهم يصكّ أذنيه لا يمسك منه كلمة واحدة . .

أطل « السومي » عبر الكوة الصغيرة فلم يتبين سوى أشخاص لم يعرف منهم أحداً فقد أسدل الليل رداءه منذ قليل . . أطل وهو مسند رأسه على الحافة السفلى للكوة فقد كان يشعر بقليل تعب . . أقصى الفانوس عنه قليلا وأرخى جسمه كلية وهو يستعيد الوجوه والملامح التي رآها طيلة يومه هذا .. إنها

وجوه كثيرة لايستطيع استعراضها واحداً واحداً . . إنها تمرّ أمام عينيه الآن متشابكة في حين تبرز من بينها وجوه تبدو أكثر وضوحاً . . ربما لأنهم أطالوا التحدث معه . . أو ربما لأنه استساغ مناظرهم . . أو ربما لانه استنكفها . . لايدري.. لقد كانوا كثيرين . . وبالتأكيد لم يكونوا كلهم من أهالي هذه المنطقة . . لاحت على شفتيه الداكنتين ابتسامة حالمة عندما تخيل المال الذي سوف يحوز عليه لو لمّ من كل شخص منهم قدراً يسيراً من المال . . وازدادت بسمته تمطياً حينما قفز أمام عينيه خيال العروس التي سيحظى بها . . والتي ستعوضه عما فاته من راحة ونعيم فقده منذ لحق والده بأمه فمات وهو طفل . . فيعيش بعد ذلك كما يعيش بقية الناس فينزاح عنه كابوس الوحدة المسلمّ به . . وحدة ليس بها من أنيس سوى حماره الذي تمدّد الآن ونام بكل هناء . . لايعنيه من أمر صاحبه شيء .

أدار رأسه بتكاسل ليطلّ من خلال الكوة تجاه القلعة حينما تناهى إلى سمعه صوت منبهات متعاقبة لدراجات نارية توقفت بعد قليل عند القلعة ، رمى ببصره فرأى كتلة من الناس تقوست حول القلعة بينما كانت هناك ثللٌ قد تبعثرت فوق الأرصفة بالقرب من القلعة ذاتها . . القى « السومي » على الجميع نظرة رضى وارتياح . . إنه لايتبين وجه أحد منهم فإضاءة الشارع غير كافية لإبانة ملامح أي شخص هناك . . فليذهب إلى هناك وإن كان الوقت متأخراً ، لملم جسده المرهق وسحب نفسه

ناحية القلعة ملقياً وهو في طريقه نظرة حانية على حماره الذي ذهب يغطّ في بحر نوم حسده عليه .

دسّ « السومي » نفسه بين الحشد الملاصق لأسفل القلعة .. إن أصواتهم وزعيقهم الذي كان يرتفع في النهار قد تلاشى ، لا يصدر عنهم الآن سوى همهمات ضئيلة قد تطغى عليها ضحكة لكنها لاتلبث أن تخبو . . ألقى نظرة على الرؤوس المشدودة ناحية القلعة فلوحت على شفتيه ابتسامة غامضة .. ستظل رؤوسهم مشدودة تجاه هذه القلعة مشغولة بها وبما تحويه في داخلها . . تفحص « السومي » الوجوه فتبين من بينها جماعة أبعد فيهم ثلة لم يرهم من قبل . . اقترب منهم وكان أحدهم يتحدث بصوت هامس :

ـ إنه حظر . . لابد من قتل الزوجين معاً . .

تدخل « السومي » حاشراً نفسه :

ـ أتقصد « الدابّ » ؟

ـ أجل . .

تكالبت أعينهم في وجه « السومي » منتظرين ما سوف يقوله فلم يكلفهم انتظاراً فبادر قائلاً بجد واضح :

ـ إن عليك حين تقتل أحد الزوجين . . أن تعجل بقتل الآخر . . وإلآ سيتعقبك لينتقم منك . . إنه ثعبان ضخم . . ولا بد أن ينتقم الزوج الذي عاش لزوجه القتيل . . حتى ولو بعد سنين . .

فتساءل أحدهم وقد علت وجهه تقطيبة وجلة :

ـ حتى ولو بعد سنين ؟ ! !

ـ أجل . . حدث في إحدى السنوات أن كان جماعة يسيرون في سفر لهم ، فصادفوا « دابّاً » فقتله رجل منهم ..

فقاطعه آخر بلهفة ورهبة : فجاء الزوج الآخر وقتله ؟ !

ـ كلا . . ليس في الحال . . وإنما بعد سنوات قصيرة.. بينما كان جماعة يجتازون ذلك المكان الذي قتل فيه « الدّابّ » وكان بينهم ذلك الرجل نفسه إذا بهم يفاجأون بدابّ ينتصب أمامهم كالنخلة الباسقة . . ففروا هاربين . . فانقض هو كالسهم خلف الرجل . . ولم يقتل سواه . .

سادت فترة صمت رهيبة فوق الجميع . . ثم علق رجل وهو يمصمص شفتيه :

ـ سبحان الله ! .. حكمة الله في خلقه . .

هزّ بعضهم رأسه بينما وجم البعض الآخر متخيلاً أمامه أحداث الحكاية فقطع كل هذا « السومي » ملوحاً بيديهممسكاً بأحدهما العصا التي يقود بها حماره . . صرخ بنبرة آمرة .

ـ اسمعوه ! . . إسمعوا فحيحه ! انصتوا !

فأنصت الجميع وساد صمت سوى أن طنينا لمذياع صغير قد أمسك به شاب من اهالي الحارة المجاورة للقلعة تصاعد !

. . . ودلّت العينات التي استجلبت من المريخ بعد فحصها على وجود كائنات حيَّة . .! أخمد الشاب مذياعه فقد أحس أن صوته نشاز لا سيما وأن كتلة الناس التي كانت بالقرب منه تنظر إليه بنظرة ملؤها عدم الاحتمال وكان بودّهم لو أمسكوا بمذياعه وحطموه فوق جمجمته . . ساد الوجوم وشدّت الآذان إلى الصوت الذي كان يصدر من داخل الثقب الذي بالقلعة . . ثم عادوا بعد هنيهة لأحاديثهم حيث تلاشى الفحيح ، قال شاب كان بالقرب من « السومي » وقد قبعت معالم الدهشة على محياه !

ـ حقاً . . إنه صوت « الدابّ » تأكدّ لدي الآن ذلك !

فعقب « السومي » وقد بانت على وجهه صورة الاحتجاج :

ـ أكان لديك أدنى شك في صحة الخبر ؟ إنني رأيته بعيني . . له لسان مشقوق . . وقرنان . . بمقدوره أن يبتلع إنساناً . .

اتجهت الأنظار صوب الثقب عندما سلط عليه رجل ضوء مصباح يدوي ، ومرت فترة صمت خاطفة انقطعت مع اختفاء الضوء من على الثقب . . قال شاب آخر كاد فمه أن ينطمر خلف شاربه الغليظ :

– ألم يحاولوا قتله ؟ قد يسبب أضراراً للأهالي المجاورين للقلعة . .

أجاب عجوز بدأ أنه من الأهالي : كان هنا منذ سنوات بعيدة « دابّ » ربما يكون هو الموجود الآن نفسه فهو يعمر سنيناً . . أو ربما يكون من نفس السلالة . . وبلحت أغنام داخل داخل الحصن . .

قاطعه السّومي قائلاً :

– السنة التي ولجت فيها الأغنام داخل الحصن ؟

– أجل !

– فعلاً . . حادثة رآها الكثير . .

وكم كان ارتياحه وانبساطه حينما لمح أعينهم تتطلع إليه باهتمام وإلحاح بالغين فواصل حديثه مقرباً حاجبيه لبعضهما في اعتزاز :

– دخلت الأغنام داخل الحصن . . وعثر على القسم الأكبر منها ميتاً . . بالطبع لم يكن هناك سوى « الدابّ » الذي أودى بحياتّها . .

حملقت الأعين مرة أخرى ناحية الثقب عندما سلط الرجل ضوء مصباحه عليه ، حملقت بشغف ومعالم الوجل تترسم فوق الوجوه ، ثم لم تلبث أن عادت خاسئة وعاد الهرج والهمهمات من جديد . التفت رجل لآخر كان بجانبه وهو يبتسم قائلاً :

ـ ما أكثر ما يشيعه الناس . . لقد سمعنا أنهم قتلوه وعثروا على كنز في مسكنه .

ضحك « السومي » في داخله ضحكة بأن بقايا ابتسامة تلوح حول شدقيه . . كنز ! ! لو كان صحيحاً قد عثروا على كنز فلربما نال هو شيئاً منه . . ثم لصار بمقدوره أن يشتري ـ على الأقل ـ حماراً آخر غير حماره الذي انقطع عن السير فانقطع الرزق معه . . أفاق من سرحانه على صوت رجل يقول وهو ينظر إلى ساعته :

ـ أوه . . لقد تأخرنا كثيراً . . عقارب الساعة تدور في الواحدة بعد منتصف الليل . انسحب الرجل ثم انسحب الجماعة الذين كانوا بالقرب من « السومي » بعد أن رمقوا ساعاتهم . . ولم يلبث هو أن اتجه ناحية « الخرابة » ماداً بصره فوق الحشد المتماوج بسرور ، ثم توقف ليلقي بنصيبه من الأحاديث فقد راق له أن يغادر المكان مع آخر من يغادر .

وطافت أيام ثلاثة أخرى ولكن الناس لم تكن متجمعةحول

القلعة كما ينفي « السومي » . . فقد كانوا حفنة قليلة . . كان كلامهم بشأن « الدابّ » فاتراً . . وصمتٌ يخيم فوقهم لفترات ليست بالقصيرة ، وربما تطرقوا حديثاً لاعلاقة له بـ « الدابّ » بينما بدا « السومي » باذلاً أقصى جهده لجعل محور حديثهم « الدّابّ » لا غيره ، وكان قد صلكّ أسماعهم للمرة الخامسة أنه رآه بعينه . . وأن له قرنين ولساناً مشقوقاً . . كان قد قالها للمرة الخامسة عندما قال أحدهم بثقة وتأكيد :

– إن داخل الحصن شجرة نبق . . حسب ما أسمع . . فقد يكون هذا الفحيح الذي يُسمع هو الصوت الناجم عن تخلخل الهواء بين فروعها . .

فأردف « السومي » مدافعاً :

– إن الصوت يسمع من الثقب .

فقال آخر معللاً السبب :

– يقطن في هذا الحصن بوم كثير . . وهذا مؤكد لأن الحصن عتيق وقديم . . ومحتمل أن الصوت هو صوت إحداها . .

فاندفع « السومي » قائلاً بلهجة ملؤها الاحتجاج !

– إن صوت البومة يختلف كلية عن هذا الصوت . .

ليس ثمة مجال للشك في ذلك . . أردف ثالث وهو يرفع « نظارته » التي انزلقت لمنتصف أنفه :

ـ من الممكن أن يكون بالجدار ثقب أوشرخ يندفع فيه الهواء داخلاً فيخرج الصوت من هذا الثقب . .

وهنا خيمت لحظة صمت فوق الجميع .

أفاق « السومي » على حمحمة حماره وهو يفحص الأرض بحوافره محاولاً تغيير ضجعته . . سحب بصره المعلق بالقلعة ، وألقى عليه نظرة لم يلبث بعدها أن نهض ذاهباً نحو القلعة . . علّه يحظى برؤية « الدابّ » الذي كان حديثاً للناس فلربما يكون وجوده صحيحاً . . أو لربما التقى شخصاً هناك يقضي معه ولو جزءاً من هذا الوقت الثقيل . . فحماره لم يشف بعد .

◇◇◇◇◇◇

هجـــرة قلب

عبد الآله عبد الرزاق عبد المجيد

ـ سيارة . .

وأنفاس متهدجة ، وطريق ممل طويل . ساعتان ويذوب بعدها غبار الطريق عن الوجه الصامت وتهدأ الأنفاس المتلاحقة عن استنشاق التراب . أفكاره تتحلق ، تتراكم . . كما تتجمع تلك النجوم حول بعضها في ركن السماء من الطرف الشمالي .

ويسترجع صوتها من غشقة العطر التي تنسمها من منديلها الملقى بجواره على مقعد السيارة ، نظر إليه في رقة ، حمله إلى أنفه ، وصمت طويلا . . والسيارة تنهب الأرض المتعرجة كما مجرى عروق جسمه النحيل . انساب العطر إلى أعماقه . . يحمل له ذكرى أول لقاء . . .

* * *

البحيرة ساكنة . . .

الماء فيها صافٍ جداً لا يتحرك . الوجه المتلفع بالخمار الأسود انعكست منه العينان المكحولتان ، الواسعتان . . وسألها :

ــ أين مضارب الشيخ « نصار » ؟

كان صوته أجش حين سألها بكل قوته . . فهو يعرف بعضا من طباع أهل الخيام هنا .

رفعت رأسها . . وكفها يحرك الخمار الأسود ذات اليمين . . واليسار . حتى لاتبدو ملامحها للغريب ورفعت يدا رقيقة ، ثم قالت :

ــ هناك . . إنه في طرف الضلع الشرقي خلف نبات الطحالب . .

صوت ناعس غلب صوته الأجش . . وأرسل نظراته الحادة يحاول أن يكتشف الفم الذي تحدث من تحت الخمار .

وابتسم في خبث وهو يفكر في سؤال آخر :

قال : هل لي بشربة ماء ؟

أجابت : لك البحيرة بمائها ؟

قال لها : لا . . إني أريد من حملك ، فنحن لم نتعود في المدينة ، الشرب من البحيرات !

سألته :

• هل أنت من المدينة ؟

– إني كذلك .

• وماذا تفعل في « قرى الجنوب » ؟

– إني صديق للشيخ نصار .

• منذ متى ؟

– وهل للصداقة زمن هنا .

• ليس كذلك . . ولكن مقياس الصداقة عندنا هو تاريخها .

– نحن لانقيس صداقتنا بتاريخها، ولكن نقيسها بقوتها .

• قوة الأشياء لا تأتي إلا من طولها وضخامتها . وهذا لايأتي في زمن قصير .

– صدقت . . ولكن عرف أهل المدن غير ذلك .

• أنتم أهل المدن لاتعترفون بحضارة أهل القرى .

– من قال ذلك ؛؟

• الشيخ نصار .

– وهل تعرفينه

• إنه « . . . » !

– إنه ماذا ؟

• لاشيء. لولا أنك تعرف الشيخ لما أشربتك من حملي ! !

– وأين الكرم العربي . ؟

• تركناه في المدينة . . اشرب ،

• تناول منها « الجرة » وحملها إلى فمه وهو يسرق بنظراته ملامح جسمها وحركة يديها . . كما حركة غزال رضيع .

• وتساقط الماء على ملابسه حين وضع فم « الجرة » على فمه وضحكت بنت القرية ذات الخمار ، وهي تراه واقفا لايعرف كيف يشرب من حملها . . وسألته في عنف :

• كيف تطلب أن تشرب من حملي ، وأنت لاتعرف كيف تمسكها ياهذا ؟

لم يجب ، بل مسح شاربيه الرقيقتين بظهر كفه من قطرات الماء الحلو وأرسل نظراته تبحث في تأنٍ « ترى ماذا يكون تحت هذا الخمار ؟ »

وأرخت الفتاة هدبيها إلى سطح البحيرة . . الماء ساكن وصورتاهما معكوستان ، على صفحة الماء وشعر بأن كل شيء سكن في تلك اللحظة ، حتى أنه تخيل الشمس واقفة في الربع الأخير من دائرة السماء . ولم تهبط إلى الغروب . .

* * *

تنفس . .

أرخى المنديل عن أنفه ، الطريق المتعرج لم ينته ، وتلاحق الأنفاس مشوب برجفة خفيفة بين الحنايا .

ومن ذلك اليوم انقلبت المفاهيم في داخله شعر بأن بنات المدينة . . « خواء » .

ولمس الفارق بين فتاة القرية . . والمدينة .

وأحس بأن قلبه أخذ يشد رحاله إلى « الجنوب » حيث مضارب الشيخ نصار .

لم يكن يتصور في بدء حياته أن يلتقي بوجه « بدوي » يحمل تلك السمات العربية الجميلة ، في « أنثى » متلفعة ببرقعها المزخرف ، لكن « المكتوب ، والنصيب » ماذا يمكن أن نفعل أمامه ؟

وأجاب :

– لاشيء . . غير أن أخبر الشيخ ، وهو سوف يدلني إليها :

• ادلهم الليل . .

وامتشقت النجوم قاماتها المضيئة . والطريق المتعرج إلى الجنوب يحس بأنه يطول به أكثر . وهذا المنديل يحمل غشقه عطرها ، عطر الانثى التي لا تضع إلا الكحل . . ولا تعرف غير الخمار يغطي وجهها ، هو نافذة عيونها الكاحلة .

• مازالت بقايا دمه في المنديل المطرز ، إنه الحظ ، كيف استطاع أن يحتفظ بمنديلها ؟

• كان ذلك يوماً آخر في مضارب الشيخ نصار ، استطاع

أن يعود إلى ذلك النبع الذي التقى فيه من قبل بذات الجرة .
واستكان لحظة أمام الماء الساكن لم يتحرك ، وقف صامتا ينظر إلى سطح الماء كان يرى قمم النخيل راكعة عند أقدامه معكوسة على مرآة الماء وبلغ ريقه . كان يحلم بجرعة ماء أخرى من « جرتّها » .

– ولكن أين هي ، وكيف ألقاها ؟ ، ربما كان مجيئها السابق مصادفة ؟ .

أسئلة متعددة ألقي بها . .

الشمس ، طريقها للغروب اقترب أكثر ، صبغة حمراء أشبه بصبغة شفاه فتاة « المدينة » تضرجت بها حواء في الأفق وسعاف النخيل تراقص بعضها بعضا كأنه « عرس » يرقص فيه غيد القرية .

سقطت عند أقدامه حبة رطب ، حنى جذعه الطويل . حملها – مسحها بطرف غترته ، ووضعها بين شفتيه . أمسك بـ « نواتها » وقذف بها بطن البحيرة .

تحرك السطح . .

حلقات . حلقات . . ، تتباعد وتكبر ، وتتسع ، . وتنتهي . وتعود من جديد حيث ألقى « بالنواة » . . مع تموج السطح ذابت كل الأشياء التي انعكست منذ قليل على الوجه الساكن . . قليلا . . قليلا . .

سكن الوجه المتموج . وعادت صفحة الماء تتشابك ، وتتماسك حتى صفا كل شيء فجأة . .

لم يتصور ما رأى . . فرك عينيه جيدا .

رفع رأسه كان وجهها زى البرقع المطرز ، وكانت عيناها ذات الكحل الأسود .

لحظة مرت . . شعر بها دهرا . لم يستطع أن يحرك نظرته عنها . . كأنما ارتاح سطح الماء على ملامحها المغطاة . . أو كأنما طبع على ذلك .

واحتار كيف يتصرف فهذه العين الحوراء ثابتة تدور .

وتعلق لسانه بين سقف حلقه . . وقاع فمه ، ولم يستعد وعيه إلا على صوتها المخملي يمشط أذنيه :

• هذا أنت مرة أخرى ؟

ماذا ألم تجد ماء في مضارب الشيخ نصار ؟

– بلى . . ولكن لم أجد من يقدمه لي . .

وأرخت هدبيها خفرا .. وخجلا . تمالك نفسه وصوته الأجش يخفت قليلا :

• هل لي أن أتعلم كيف تملأ الجرار ؟

- ولكن المدينة لايوجد بها نبع . . أو بحيرة . .

• إنه من باب العلم بالشيء . . ولا الجهل به .

— الإنسان يتعلم الشيء الذي يستفيد منه .

• ربما استفدت منه في مستقبل الأيام . .

• عادت . . العينان ترخي أهدابها المكحولة الحوراء ، وأحس لحظتها بأن التي أمامه رغم الثياب التي تلبس إنما هي غير ذلك .

تقدم إلى حافة البحيرة ليدور حولها ، ويصل إلى حيث كانت واقفة قامتها الرشيقة ، وتعثرت أقدامه في حجر قائم . . وسقط على كفه الأيمن ارتفعت ضحكتها الخافتة . . كأنها موسيقى تصويرية ، وتلعثمت ضحكتها حين رأت الدم يسيل من بين أصابع الكف .

تأوهت . .

وتقدمت إليه بعد أن رمت بجرتها بجوار حافة النبع ، وجرت إليه مسرعة ، وحنت جذعها وقبضت باليد المجروحة — رفعتها إلى أعلى رأسه . وحملت بيدها الأخرى كف ماء من النبع . . وغسلت الجرح .

— هل لديك منديل ؟ .

• أوه . . كلا

— حسنا

أدخلت يدها في مخبأتها . . وأخرجت منديلها المطرز ، لفت به الجرح بعد أن وقف الدم .

رفع إليها عينيه ارتبكت من نظراته الحانية ، وتركت يده في رفق بعد أن أحست بحرارتها .

عادت إلى مكانها ولحقها بعينيه إلى حيث جرتها .

جلست القرفصاء ، أغرقت جرتها في الماء ، ثم فتحت فمها وشيئا فشيئا امتلأت الجرة بالماء الحلو وبدفء الشمس التي غرقت هي الأخرى خلف التلال الغربية البعيدة تاركة خلفها خيوطا حمراء في الأفق الغربي وظلالا سوداء داكنة في الطرف الشرقي .

* * *

— الطريق الملتوى يمتد إلى ما بين أعالي الجبال .

وعورة الدرب أنسته أن يرفع يده بالمنديل ليمسح دمعة سقطت على خده . وشعر بأن الدمعة جرحت وجنتيه .

عادت إلى مخيلته بعض تلك الأيام . . كيف تكرر اللقاء . . وتعددت جرعة الماء . . وازدادت خلالها النظرات الحفرة ، والتي أحس خلالها بأن قلبه قد وقف عند حد البحيرة . ولايريد أن يتنفس ، أو ينبض بغير هذا المكان . أما هي فكانت مثل موج البحر بين مد . . وجزر . .

لم تحاول أن تعطيه شيئا ، ولم تأخذ منه في المقابل غير

حديث يبدأ وينتهي في وقت قصير جدا . ذلك حين تأتي تجلس القرفصاء تملأ جرتها .

وكان يحاول أن يعرف ابنة من هي في هذه المضارب ؟

لكنها لم تقل له غير أن اسمها « هيا » .

وظل ذلك اللقاء المستحي يتكرر مع كل غروب . حين كانت تأتي لتملأ جرتها ، وحين كان يأتي ليشرب من يدها — ويكحل عينيه من حور عينيها .

وجاء يوم الرحيل . أحس بأنه سيترك قلبه لديها .

قال لها ذلك وعيناه تدمع :

• وهل سيطول غيابك . . ياماهر ؟

قالت له ذلك . . وعيناها ذابلتان مكسورتا الهدب .

— إن طال غيابي فسيكون بعده لقاء أبدي لن يفرقنا فيه إلا الموت .

« هيا » . . إني أريدك لي . . »

• لاتقل الموت .. ولا تقلها فنحن لم نتعود أن نسمعها إلا من أهلنا .

— أعرف ذلك . . وهذا سيكون عند عودتي إليك .

لكن ماذا تطلبين من المدينة . .

• أريدك أنت .

إني لم أتصور في يوم ما أن يكون لي شيء من المدينة .

قالت ذلك في عنف ، وبساطة ، ووجد .

— سكتا . . لكن عيونهما فاضتا بما في القلبين .

لحظتها توسط القمر سقف السماء ، وانعكست صورتهما خفيفة على سطح ماء البحيرة الساكنة كمرآة فضية لامعة .

* * *

كان ذلك آخر غروب يرى فيه « هيا » وودع الشيخ نصار بفرح عميق ، وزائد على ماقدمه له من حسن ضيافة . . وكرم عربي كريم .

وقبل أن يغادر الخيام ، همس في أذن الشيخ :

— هل تقبلون بابن المدينة زوجا لاحدى بناتكم ؟

• أنعم . . وأكرم يابني . وخيرا من أمثالك .

— إذن سيكون لنا لقاء ياشيخ نصار . . لكن لابد أن تساعدني في ذلك .

• إيه . لابد أن عيون الغيد سحرتك « ياماهر » . .

— اللقاء القادم ستعرف ذلك ياشيخ نصار . .

* * *

• مضت عشرة أيام أحس بها ماهر أن المدينة قد زاد ضجيجها .

واتسعت فيها الأحقاد . وكبرت رؤوس الناس وعلت .

شعر بأنه لايستطيع أنيبقى هنا طويلا أحس بأنه بلا قلب .

قلبه هناك مهاجر في الجنوب . ويجب أن يهجر المدينة إلى حيث البحيرة الساكنة ، والعين الناعسة ، والوجه الخماري المجهول .

إحساسات متناقضة أخذت تلعب في أعماقه وداخله شعور بالغربة عنيف يحتويه . وإحساس بالراحة التي سيلقاها في أيامه القادمة .

واحتدت مشاعره ، وعقد عزمه على الرحيل . .

كان طوال الطريق يفكر في خيام الشيخ نصار ، وفي لقائه مع « هيا » .

ومدى السعادة التي سيعيشها قلبه حين يلتقي بها حيث السماء الصافية والبحيرة الساحرة والليل الفسيح . كان يشعر أنه يملك كل هذه الأشياء ، ولن ينافسه أحد عليها .

* * *

الحزن الكثيف على وجه الشيخ نصار هو الذي التقى به ماهر .

حين وصل إلى الخيام الضاربة بين جبال الجنوب .

وصفعه حزن قوي حين سمع بخبر وفاة ابنة الشيخ . .

فقد إحساسه بالفرح ، حين علم أن أجمل فتاة للشيخ نصار

قد سقطت من على التل الكبير وهي عائدة في الغروب ، وفقدت روحها البريئة مضرجة بالدماء الدافئة من كل مكان في جسدها البكر .

وانعقد لسان ماهر عن كلمات العزاء فهو يعرف أن الشيخ نصار لا يبكي رخيصا . وبصوت متهدج محروق قال الشيخ :

وكانت من أجمل بناتي ياماهر . وكان يضرب بها المثل في حديثها ولباقتها . لم تدخل مدرسة ، ولكنها مارست تعليمها في مدرسة الحياة .

كانت زهرة ندية بين غيد مضاربنا .

هون عليك ياشيخ نصار ، هذا مكتوب علينا .

• إيه صدقت ياماهر . . ليرحمك الله « ياهيا » .

انسحق ماهر ،ذابت كل مفاصله حين سمع الاسم يتردد .

لم يدر ماذا يفعل أو يقول ، انعقد لسانه وهو يهمس

• أتكون هي بذاتها ؟؟

لم يتمالك نفسه . استأذن الشيخ ونهض .

خرج ماهر لا يلوى على شيء قطع مضرب الخيام إلى حيث النبع كانت الشمس كما تركها منذ ذلك اليوم ، أو خيل إليه ذلك .

أحس بأنها لم تتحرك من جغرافيتها .

وتقدم إلى حافة البحيرة ، لم تكن ساكنة . بل كانت هناك نسمة صيف خفيفة تحرك سطحها ، وصوت حفيف سعف النخيل .

• انتظر . .

انتظر طويلا ، وعيناه تبحثان في كل اتجاه عن قدومها .

وفجأة . . لمح جرتها ساكنة ملقية على بعد امتار بين الصخور التي وقع بجوارها ذات يوم مضى .

تقدم إلى الجرة الفارغة ، وحنى جسمه في هدوء ، حملها في تأن وخشوع كانت هي بذاتها التي شرب منها . ورفع الجرة إلى فمه ، لم تسقط منها إلا قطرة واحدة . .

قطرة واحدة فقط .

وأجهش بالبكاء بصوت مفطور ، ودموع حارة وجسد متبتل .

دار على نفسه . . ولمح منحدر الوادي الأخضر الهاوي ، تقدم ووقف على حافته كأنما يتحداه أن يأخذه أيضا كما أخذ (هيا) .

• أظلم الليل ، وهو قابع لايتحرك ، والجرة بين يديه وعلى صدره تلفحها أنفاسه الحارة المحروقة كمداً وحزناً ، وترطب من جفافها دموعه . وعاد أدراجه إلى مضارب الشيخ نصار .

واستأذن الشيخ أن يترك الخيام . . لكنه لم يترك الجرة ، ولم يترك منديلها .

وأقسم عظيما على نفسه أن قلبه لن يرحل من هنا .

عاد ماهر إلى المدينة بلا قلب . . عاد جسدا بلا روح . عاد مركبا بلا شراع . .

يعانقه الحزن . . والبكاء ، والألم .

وكان كلما انتصف شهر قادم ، رحل إلى قلبه المهاجر في الجنوب .

يمكث لدى الشيخ نصار يومين ، يقضي أكثرها عند حافة البحيرة ورأس الوادي الغادر برغم خضرة جوانبه . . إلا أنه غير آمن .

كان برغم كراهيته للوادي . . يقدر حبه الشديد . . لكي يستكين في ذلك الموضع يسمع حفيف السعاف وكأنه صوت « هيا » تناديه ويرى القمر ، فيبتسم لوجهها المتجدد في القمر .

* * *

• منتصف الشهر الخامس .

سيارة . . وأنفاس متهدجة تعبة .

وطريق ينتهي عند مضارب الشيخ نصار .

دقائق . . ويذوب بعدها غبار الطريق . بغشقة عطر من منديلها المطرز ، وبقطرة ماء من جرّتها . يهبط « ماهر » إلى ضياع الشيخ ، يصافحه ، يضمه إليه ، ويستأذنه . يتجه إلى البحيرة في سكون وتبتل وخشوع :

كان هناك سؤآلان يدوران في مخيلته كلما جاء إلى المضارب .

– هل يبلغ الشيخ نصار بما كان بينه وبين « هيا » ؟

– هل يدري الشيخ أن التي كان سيتزوجها من غيد المضارب هي ابنته ؟

وأغلق عينيه الدامعتين على منديلها ، وجرّتها على صدره رطبة بدموعه ، والبحيرة أمامه تتحرك من نسمة الصيف . . والقمر آخذ في الظهور . .

ويبقى يومين يمضي أكثرها هكذا .

الكاركاتير القاتل

نوال عباس عبد الغني جار

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فكان لدقتها صوت جعل الدم يفور من وجه إمرأة كانت جالسة على مقعد فاضطربت وتحركت شفتاها بهمس والتفتت إلى الخلف مذعورة تنظر إلى غرفة على يمينها وازدادت دقات قلبها حين رأت بصيصاً من نور يظهر من تلك الغرفة وترددت نظراتها الحائرة بين باب المنزل وباب الغرفة ، لم يستطع مشغلها أن يحول نظرها عنهما بل لم تستطع الموسيقى الصادرة من جهاز الراديو الذي أمامها أن تشغلها عما شغل بالها . وامتدت يدها دون قصد إلى الراديو وأقفلته ، وقامت بخطى متثاقلة كمن توجس خيفة منذ تدحرجت كرة الصوف من يدها وداست على الخيط فكسرت الغرزات التي تعبت في صنعها وتمتمت بصوت خافت: ترى لماذا لم يعد ؟ وفعلت الهواجس فيها فعلها فلم تعد قادرة على الوقوف ولم تنتبه لخروج رجل من الغرفة المجاورة في

حوالي الخمسين من عمره . يلبس نظارات سميكة على سحنة غاضبة . وصفق الباب وراءه فتنبهت ولكنها تشاغلت عنه برفع ما سقط منها فبادرها بقوله : طائش . . أحمق . . ألم يأت بعد ؟ ولكنها لم ترد حاولت أن تتكلم فوقفت الكلمات في حلقها لاتريد أن تتزحزح وماذا تقول ؟ لقد فرغت جعبتها مما فيها فهي منذ ثلاثة شهور تخلق أعذاراً تدافع بها عمن أسماه طائش ! ! إنه ابنها وحيدها المدلّل . لقد أقسم أن لايدخله المنزل إذا تأخر وهاهي رحلة الليل قد اقتربت من النهاية وهو لم يعد ، وتنهدت بألم فاقترب منها وهو يصرخ . لقد دللته . . أفسدته . . حاولت كثيراً إصلاحه ولكن هيهات . لقد علمت كثيراً من أبناء هذا البلد ولم أزل . علمتهم ووعظتهم وهاهم الآن رجالاً يشهدون بأعمالهم الحاضرة على أعمالي السابقة وها هو ابني يقيم أكبر دليل على فشلي ، يشير إليه كل من رآه :

– ابن المدرس الفاضل – لقد هدم الصرح الذي بنيته وأصبح أملي ككومة من القش أتت عليها شرارة ضعيفة فحرقتها . كنت أنت الشرارة ، لولاك لما وصلت إلى هذه الحالة . ليته مات – ليته مات . كانت إلى ماقبل هذه الجملة لم تنظر في وجهه إلى أن قالها فرفعت عينيها إليه . ياإلهي ما هذا ؟ لقد بدأ الزبد يخرج من فمه وجحظت عيناه على شكل لم تره من قبل وتشنجت يداه . وأسرعت إليه حاولت أن تجلسه

ولكنها لم تستطع . من تنادي ؟ « ياإلهي » صرخت المرأة .
وفي هذه الأثناء فتح الباب الآخر في غفلة عنها أيضاً ودخل
الطائش المدلل . لقد أفاق من سكرته على صوت نحيبها
وبكائها ، ذلك البكاء الذي كان مغايراً لما كان يسمعه كل يوم
حين تتناقش مع أبيه في أمره . روع ولم يعرف ماذا يفعل
كأنما سمر على عتبة الباب ودارت الدنيا برأسه فهو لم يعتد على
البت في أمر كهذا . فماذا يفعل ؟ وانتشله صوت فزع لسماعه
إنه صوت والدته لم يسمعها تكلمه هكذا من قبل — أسرع
واستدع الطبيب — ولكنه لم يكلف بمهمة كهذه من قبل
فلو قالت له ائت بأكبر مدير للملهى من الملاهي لعرف أين
يكون في مثل هذه الساعة من كثرة تردده على تلك الأماكن
وتلفت حوله بذعر فمن كانت تقدم له المعونة محتاجة إليها
ومن من ؟ وأسرع هابطاً الدرج وعلى ضوء مصابيح الشارع
الخافتة بدأ يقرأ اليافطات المكتوبة على العمارات وأخيراً هاهو
طبيب ودلف إلى داخل العمارة وسرعان ماكان يحدث الطبيب
ثم وصلا إلى المنزل كان كل شيء على حاله ماعدا الزوجين
فالأب مستقبل القبلة وقد فارق الحياة . لقد تغلب عليه ضعف
زوجته . لا لم يكن ضعفاً بل كان قوة ! ! نعم لقد كان إلحاحها
قوة وإلا لما استطاعت أن تؤثر عليه . . . أما هي فقد كانت
ممددة ووجهها إلى الأرض كأنما لم تستطع النظر إلى شعلة
الحياة في زوجها وهي تطفأ أمام عينيها بنفخة واحدة هيأتها هي

منذ ولادة طفلها كأنما جمعت قوتها طيلة تلك السنين لتقضي عليه في هذه اللحظة . وأسرع الطبيب بإلقاء غطاء على الرجل واستدار ناحية المرأة يعالج جسدها . فمن يعالج الروح ؟ .

ووقف الفتى على رأس أبيه غير مصدق وحلقات من الظلام تتتالى أمام ناظريه . . . رحل الأب عن منبع الشقاء – أسرته – وخرجت من تلك المحنة إنسانة أخرى أنكر ابنها كلامها كما أنكر صوتها حين سمعه تلك الليلة المشئومة . لم تعد تطيق النظر إليه رغم أنه كان الأمل الباقي لها بعد رحيل زوجها ولكنه أمل كالسراب يخدع الناظر إليه . ولم تتحدث معه أمه ، ولكنه قرأ في وجهها وعينيها الكثير فتسلل من البيت وخرج . لم تهتم بادىء الأمر ولكن ما أن دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حتى كانت عيناها مسمرتين على الباب ولكنه لم يعد . ومضى يوم في إثره آخر وتتابعت الأيام تكر كما كر الخيط في تلك الليلة المشئومة وتعاقبت الشهور ثم جاءتها رسالة وبها حوالة ماليه باسم ابنها ونظرت إليها ولم تمسها وتتابعت الرسائل في كل شهر وتعاقبت خمسة من الأعوام وذات يوم سمعت طرقاً على الباب فقامت متثاقلة وفتحته فرأت ابنها أمامها . أنكرته لقد تغير . ظهرت عليه معالم شيخوخة مبكرة فقد غزا الشيب رأسه . كانت تظن أن الحادث لم يؤثر فيه . وتعانقت النظرات قبل الأجساد وانحدرت الدموع ولم تنفرج

الشفاه عن ابتسامة فقد ماتت البسمات على الشفاه أو ربما نسوا كيف يبتسمون وما طعم الضحك ؟ ولم يكد يخطو خطوة واحدة حتّى التفت إلى تلك الغرفة التي على اليمين غرفة أبيه التي لم يدخلها أحد بعد موته بقيت كما هي وأقفلت على ما كانت عليه . وتلاقت نظراتهما وتقدم بخطوة ثابتة نحوها إلا أن يديه ارتعشتا وهو يفتح القفل وأحس برهبة كمذنب أمام مسجد أو قاتل أمام القبور . والتفت إلى أمه ثانية كأنما يستمد منها العون ولكنها لم تكن حاضرة كأنما أشفقت على تلك الغرفة أن تدنس بوطء قدميها أو حتّى نظرات عينيها . ولم يكن له الخيار فدخل وشغل قليلاً بالكتب التي لم يرها مرة في حياته ثم اقترب من المكتب وعبث في محتوياته وأخرج بعض الأوراق فلفتت نظره صحيفة يومية فدفعه حب الاستطلاع لرؤيتها وما كاد يفعل حتّى صعق لقد رأى صورة له مع والده في منظر كاريكاتيري ساخر مع جملة صغيرة (أنقذوا أبناءكم) .

عمود الكهرباء

علي المحسن

(عندما تفرض طباعنا نفسها على تصرفاتنا . .)

طرقت الباب طرقاً خافتاً كعادتي ، وانتظرت برهة ، فسمعت خطوات تقترب من الداخل .

فُتح الباب ، فإذا هو وجه الخادمة العجوز ، العابس الثقيل الذي لم أكن أشعر بالارتياح حين أراه ، وقد ارتسمت عليه دلائل الامتعاض ، إذ رأتني واقفاً بوقار ، وأنا مستعد للدخول ، فتركت الباب مفتوحاً ، ومرقت إلى الداخل ، وهي تتمتم بكلمات لم أفهمها ، ولم أجهد نفسي لفهمها ، ولكنها — كما يبدو — تعبر بها عن استيائها لقدومي .

لم أكن أستلطف هذه العجوز . . ولا أحبذ رؤياها ، أو سماع ما تبدي . هذا كل ما أشعر نحوها ، فليست هي بالنسبة إليّ سوى خادمة عجوز لايهمني أمرها ، بل أكاد

لا أشعر بوجودها ، لولا هذا الوجه الثقيل المنقبض ، الذي يزداد انْقباضه بمجرد أن تراني عينا القرد المعلّقتان فيه . . .

أظن أنها كانت تفعل ذلك ، لاهتمام السيد ــ الذي تعمل في منزله ــ بي ، اهتماماً ترىَ أنني لا أستحقه ، أو أنه في غير محله ، فالسيد ــ حفظه الله ــ اعتاد أن يدعوني إلى منزله كل ليلة جمعة ، لأتعشى معه ، لأنه رجل لا زوج له ولا أبناء . وبعده نتناول القهوة ، ويبدأ يحدثني عن أعماله التجارية الكثيرة ، وعن أسواقها ومواسم انتعاشها ، وأنواع التجارة الرائجة والمضمونة هذه الأيام ، والتاجر اللبيب ، والحيل التجارية والأرباح غير المشروعة . . إلى آخر هذه الأمور .

ومع أنني لا أحب الخوض في حديث من هذا النوع ، إلا أنني أفعل ذلك إرضاء للسيد ، الذي لم يكن يتيح لي فرصة الكلام مطلقاً ، إلا حين أعلق على كلامه كقولي :

ــ أجل !

ــ هذا صحيح !

ــ حسناً فعلت . .

ــ أو حين أستفسر عن بعض ما يقول . .

* * *

دخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي ، فأمرتني بفظاظة ، أن أجلس

على الكنبة في الردهة ، وذهبتْ . فعلمتُ من تركها الباب مفتوحاً منذ برهة ، وثرثرتها قبل دخولي وبعده ، وأمرها إياي بالجلوس . علمت أن السيد ليس موجوداً ، إذ لم تكن تجرؤ في حضرته على أن تأمرني بشيءٍ ما ، مهما صغر ، ولا سيما بهذه الصيغة غير المؤدبة . كانت تطلب مني — طلباً وليس أمراً — بابتسامة باهته يبدو التكلّف في اصطناعها واضحاً . . ولكنها — على كل حال — ابتسامة ، كما كانت تدعوني في وجودة بكلمة « سيدي » ، بلفظ تنتزعه من فيها انتزاعاً ، وبجهد كبير .

فلما جلستُ ، بدا لي المكان موحشاً كئيباً ، يثير الضيق في نفسي ، لكنني — في محاولة للهروب من هذا الضيق الذي استبد بي فجأة — رحتُ أتأمل الرسوم التي تزدان بها واجهة الردهة ، وقد ألقيتُ برأسي إلى الوراء ، كعادتي في مثل هذه المواقف ، إذ أتصرف — في حدود الأدب طبعاً — بحرية ، كي لا أبدو مغلوبا على أمري .

فطاف بخاطري أول مرة رأيت فيها هذه الردهة الفسيحة ، وتلك الرسوم المعلقة أمامي .

كانت ليلة ماطرة ، حين طرقتُ باب هذا المنزل لأول مرة ، وأنا ألهث ، وأمسح قطرات المطر عن وجهي ، وأنفض

ثيابي . ففتحته الخادمة العجوز ، وهي ترمقني بتلك النظرات ، كأنها تكبر أن يطرق هذا الباب رجل مثلي . .

فقلتُ لها مستجدياً مسترحماً :

ـ حسنة لله يا محسنين . .

وأردتُ أن أكمل العبارة ، التي تنطلق من فمي عادة ، ومن غير قصد أحياناً ، وأنا أجوب الاسواق في النهار ، أو جالس القرفصاء على الرصيف في الليل ، بجوار عمود الكهرباء ويدي اليمنى ، النحيلة مفتوحة وهي ترتعش ، وليس في ذلك المكان الكئيب شيء يوحي بالحياة ، إلا صوتي الذي بدا لي أخيراً أنه هو الآخر ، أصبح ميتاً ، لا أثر للحياة فيه ، وأنا أردد :

ـ حسنة لله يامحسنين . .

أطعموا البائس الفقير . .

رحمة بالجائع المسكين . .

* * *

أردتُ أن أكملها ، لكنها صفقتْ الباب في وجهي بعنف ، فعدتُ على الفور من حيث أتيت ، وأنا أتهادى تعباً ، فأراني أجرذاتي جراً ، إذ لم تترك جولاتي في هذا اليوم النحس في الأسواق ، فيَّ بقية ، أستطيع بها أن أصل إلى عمود الكهرباء ، وأجلس بجواره جلستي المعهودة ، لعل الله يرزقني ولو كسرة

خبز يابسة ، مع علمي بأني لن أنال شيئاً يذكر . فالناس هذه الأيام ، يعتقدون أن كل متسول منا ثري جداً ، ولديه من المال ما لا يتسع له صندوق . فتراهم دائماً ينظرون إلينا بريبة وحذر ، وترى الرجل لايدس في يد أحدنا ريالاً ، إلا إذا كان في مكان عام .

وخرجتُ من البوابة الكبيرة ، لكني شعرتُ بيد ثقيلة ، فوق كتفي ترتعش ، فالتفتُّ فإذا هي الخادمة ، تقول وهي تزفر أنفاسها بامتعاض ، وكأن رائحة مّا تزكم أنفها :

– السيد يريدك :

– يريدني أنا ؟

وتقدمتني فتبعتها ، وكأن لم يترك مافعلت ، في نفسي أي أثر . . .

ودخلتْ ، فدخلتُ خلفها ، فرأيت السيد الكريم ، جالساً وحده على هذه الكنبة التي أجلس عليها الآن ، وهو يحتسي القهوة كعادته بعد العشاء :

– مساء الخير ياسيدي . .

– مساء الخير . .

تفضل بالجلوس . .

هنا . . إلى جواري . .

فجلستُ كما أشار ، إلى جواره ، وأنا متهيّب منه ،

فأمر لي بطعام . ثم أمر بإحضار بعض الملابس ، وطلب مني أن آخذها . . كما أعطاني ورقتين نقديتين من فئة المائة ريال ، وعندما شئتُ الخروج طلب مني أن أحضر في ليالي الجمعة حيث يكون في منزله ، لتناول طعام العشاء معه .

* * *

إلتفتُّ ، فإذا الخادمة العجوز ، تضع أطباق الطعام على المائدة ، فقلتُ لها :

ـ أليس السيد موجوداً ؟

ـ كلا !

ـ وهل سيحضر الليلة ؟

ـ لن يحضر !

كانت تجيبني بنفور ، فقمت وقلتُ بنبرة هادئة :

ـ إذن . . فعلي أن . .

فقاطعتني وهي ترمقني بحنق :

ـ إجلس أيها الثعلب العجوز !

وقبل أن ترتسم على وجهي أمارات الدهشة ، لهذه الجرأة ، استطردتْ قائلة :

ـ عليك أن تملأ هذا البطن الكبير وتنصرف ، ولا شأن لك بالسيد . .

ثم أخذتْ توزّع الأطباق هنا وهناك على المائدة . . لكنني لم أردَّ عليها بكلمة واحدة ، وخرجتُ ، وهي تطلق من خلفي سيلاً من ألفاظ التهكم والازدراء والشتم ، التي كانت كالطعنات تمزقني . .

فرحتُ انتهب الخطى ، كي أبتعد عن هذا المنزل ، الذي اصبحتْ عودتي إليه شبه محالة ، فلقد أحسست أخيراً أن مهنة التسول — على مافيها — خير لي ، ألف مرة من كل ذلك . . أو هكذا خيّل لي وانا في ذلك الموقف .

لكنني حاولت الهروب من هذه الفكرة الخطيرة ، بعد أن تجاوزت البوابة الكبيرة ، واقتربتُ من صاحبي القديم — عمود الكهرباء — فرأيتني ، من دون أن أفكر تماماً فيما أنا مقدم عليه ، أجلس القرفصاء بجواره في هدوء ، وأمد يدي ، وصوتي يشق السكون المخيّم على المكان مردداً :

— حسنة لله يا محسنين . .

اطعموا البائس الفقير . .

رحمة بالجائع المسكين . .

حياة من ورق

فوزية البكر

أنا المرأة القادمة من ديار الحرارة اللاهبة والصقيع الحاد الذي يثني العظام . . يغفو الليل باكرا فوق حدود قريتي الصغيرة . . ليتوارى كل ذي حياة داخل عروقه . . أنا المرأة التي لا تملك من اتساع عالمها غـــير أن تقف في الخفاء على أصابع قدميها لتنظر إلى العالم من خلال فتحات النافذة الصغيرة . . الأقفاص الحادة التي تغلف الأعمار . . لم تمنع العيون المحدقة بلا هدف أحيانا من التطلع إلى مستقبل غير واضح الرؤى .

آه . . اشعرأني أود أن ألملم قريتي من أطرافها الأربع . . أود لو قبلتها طويلا . . طويلا لو أشعرتها بدفئها الذي كستني إياه . .

شباب قريتي يبدو كقطع الفلين الطافية على السطح لاتملك

مستقرا . . يبدو النفور والحيرة واضحين في الأعين . . هم يطلبون التحدث عن الضجر . . نحن ها هنا نعيش بحقولنا بكرومنا . . وبأعلافنا الخضراء التي تطعم بخيرها حتى الكائنات الصغيرة الدابة في الخفاء . .

كم من الأشياء نعشقها هاهنا . . إننا لانملك إلا أن نحب بعنف . . حتى تلك الشقوق المزمنة في جدران بيوتنا الطينية القديمة . . حتى ذلك التيبس الخفيف المشوب بسمرة غامقة فوق وجوهنا . . بعد عناء أيام مشمسة . .

كم هو مثير مرأى المنازل القديمة الغافية في حضن قريتنا الصغيرة — حين اعتلى السطوح لاعداد عدة النوم . . هناك نجتمع . . نحن والبعوض والحرارة اللاهبة . . اصدقاء لانفترق ولا يضيق أي منا بالطرف الآخر . . حتى طنينها الذي يردد أقرباؤنا من ساكني المدينة حين يقدمون لزيارتنا بأنه مزعج ومؤذ . . يبدو عاديا غير محسوس يختفي مع أصوات شجر السرو القادمة من خلف التلال . . تحمي القرية من اعتداء الرمال المتوحشة الراغبة في الالتهام . .

ضوء القمر في أيامه الوسطى يغزو الأفق . . وأخوتي الصغار يقفزون فوق فراش النوم . . والوالد المهيب يتوسط الحلقة . . كم يبدو شامخا . . أنه المركز الأساسي للدائرة . . تنطلق كل الخيوط . . وبأصابعه تتقرر المواسم . .

القدرة المطلقة تتحدث . . لم نُسقَ مطرا وسيغزونا الجفاف

يرد أخي : نأمل في أمطار الصيف . .

— : أية أمطار .. ؟ الشتاء كان جافا والصيف سوف يعتصرنا . . ذات مرة . . حدثتني الاشجار الشاحبة لقسوة الجفاف .. كانت تردد أنها ستختنق وأن القرية سيقضي عليها.. وسنحمل كأية مخلفات عتيقة ليبتلعنا جوف المدينة الكبير ... غرباء في حي عتيق ينعتونه هناك بالحي القديم . . تصورت الرمال وقد هاج خدها الأحمر . . تفغرفاها . . تبتلع كروم العنب . . تخنق بلا شفقة حقول الأعلاف الخضراء على مدّ البصر . . يتوقف المجرى وتنهار المظلة . . وتموت الضحكات العصرية حول كؤوس الشاى الأخضر . . تختنق القدرة الفذة . . أبي . . وينتهي كأي تمثال منسي في قلعة أثرية مطمورة . . آه — . . أي قدر ؟ فررت هاربة كأني أناشدها التوقف . . ألثم خد العشب الندي .. أتوسل لرطوبته الدافئة أن تبقى أنها الحياة ..

بالأمس كنت أقطف الثمار . . أحصر الخير . . مر أحدهم . . هؤلاء الشبان المتعبون التائهون ما بين حدود المدينة وفاة القرية .. تغرس في يديَّ التي انغرس فيهما الشوك بلامبالاة . وتبسم . . نظرت إليه بسمرتي الحادة . . وبعينيَّ المسطحتين .. قلت إنها الحياة . .

تبسم قائلا : أي حياة . . الشوك قبل الثمار يدمي . .

قلت ألا تعرف المدينة القسوة ؟ ألا تخنقك الأشواك أحيانا . . مد بصره إلى البعيد والتقط أحد العروق اليابسة من فوق الشجرة وغرسه في أسنانه بلا مبالاة . . وهو يردد . . أحيانا . . ولكننا هنا . . غدونا كالأواني القديمة داخل صناديق الأجداد . . وجوهنا . . شفاهنا تقلصت . . لانملك أن نضحك باتساع لأن المغيب مقبل . .

لا نملك أن نقول لمن نريده . . أننا كذلك . . سيفر هاربا لأنه لا يقوى على تحمل سعادة من يحب . . لا نملك أن نناجي الليل بلحن شجي يسرق أحزان السواد . . وينعش القلوب الغافية تحت الشجر . . ما الذي نملكه ؟

استعدت ما قال . . وتذكرت أن لدينا من ثمار المدينة ما يسمونه المدرسة ولكن هل هي الحياة ؟ لازال بيت المدرسة هو أكثر ما نعرفه ونميزه في داخل القرية . . كان عالما جديدا ننتقل إليه . حين قررت الدخول . . وسرت إليه في الموعد قبيل العصر . . والنسمات الخفيفة تلاحقني حتى دلفت إلى الداخل . . لحظتها . . أحسست برأسي يتضخم حتى لكأنه يستولي على مساحة الدار . عيناي لاتملكان القدرة على الاستقرار على شيء محدد بالذات فتيات المزارع المنتشرات على الأرض يتضاحكن في همس بملابسهن الريفية البسيطة . . كانت الدهشة والعجب وحب التطلع والحديث هو ما أغراهن بالحضور بدءا

. . ومن بينهن رأيتها . . كانت تضع النظارة على أنفها الدقيق بفستانها الغامق . . وبشعرها المسرح على طريقة بنات المدن . . تحادثت مع احداهن بلطف . . بين ترقب الأخريات وتخوفهن حتى أجابت . . كنا كمن وجد في حضرة العظيم المنتظر . . في البداية صب في عروقي نبض احساس حاد بالغربة . . والرغبة العارمة في الابتعاد . .

عيناي القلقتين لاتملكان الاستقرار . . ويداى في عصبية واضحة تتحرك . . نظرت إلي فارتعش عرق آخر في صدري . . تبسمت . . موجة حنان طاغية كادت أن تشملني نظرت إليها ثم خفضت تطلعي . . وأصغيت كالمنومة . قطرات المطر في الأرض الجافة تهطل قطرة . . قطرة . . وشيئا فشيئا بدأ العالم المسحور ينكشف . .

بعدها أصبح من المألوف أن نتراكض قبيل العصرية بقليل لمنزل المدرسة . .

ها هو العالم أخيرا يقبل القدوم الينا . . هاهو ذا سحر جديد يسرى في دمائنا . . لم نعد مجرد جسد مرهق وأصابع مزقتها قسوة الحصاد . . ولكن هل هي الحياة ؟ . . العودة محتومة . . ها هو الحقل من جديد . . والحصاد مرة أخرى . . والشوك حقا قبل الثمار يدمي . .

في الليل كثيرا ما يعن لي أن أناجي القمر . . أعدِّدُ على

ضوؤه ما أعشق . . هاهي النخلة وهناك مجرى المياة الصغيرة. وها هنا كرمة عنب طائفي يتدلى . . وها هنا . . آه . . أعترف أني أحتل القمر وحيدة . . أحبه . . وأمنحه ما يمكن لأنثي أن تعطي حين تحب . . أنه القمر . . . .

لكن حتّى الضوء لا يقبل إلا العودة إلى باطن الأرض حتّى لو قرر الاختفاء . . ينعش الزهر ويلقي ظلاله المسحورة على الحقول الواسعة ليمنحها لحظة حياة . .

بصر الضوء على أن يكون سيد الموقف فوق كل شجرة . . فوق كل نبتة . . وجذع . . هل هي الحياة ؟

العودة إلى الأرض . . قدر . . وأنا أمرأة الأرض العطشى . . تحبو فرقها تطلب المزيد هل هي الحياة . . ؟

العالم المسحور الذي ينكشف من عينيها الغافيتين خلف النظارة . . ينادي يغرقنا دون أن نعي . . هل هي الحياة ..؟!

القفز والأعناق المبتورة

مطلق محمد الدوسري

شده لمــا رأى . . . وسؤال تعلق بفمه ألقاه على صديقه الفنان بعد أن استرد وعيه بنفسه

ـ أين لوحتك ؟ ـ وبقى الجواب صامتا .

تجولا في أنحاء المعرض . . ثرثرة تخرج من هناك . . فنان يعتب لماذا لم يفز ؟ وآخر يلوم نفسه كان سخيفاً لأنه لم يتبع السريالية . . وآخر أطبق الصمت عليه . . . وهناك فنان ناشيء أحاط به زملاؤه . . يحدثهم والسرور يطفح من كلماته . . كيف أنه اشترك في المعرض .

عاد يكرر السؤال :

ألا تخبرني ؟ آه نعم . . . هذه هي صاحبة الجائزة الأولى . . وهذا اسمك الذهبي الموقع عليها ـ زيد عبد الحي .

ـ أظن أنها . . .

ولم يدعه عمرو يكمل وهو في غمرة حماسه .

ـ أذكر أنني هنأتك أم تريد أن تظهر لي تواضعك ولا تخبرني عنها . . والأفضل أن تقول لي كيف رسمتها ؟ . . يالي من إنسان مغبونٍ تعيس الحظ وأقول ثرثارا أيضاً ولكن بتحفظ .

وظهر تبدل في لون وجه عمرو وبدا كأن الدم قد فارقه وهو يقول :

ـ كلما جربت نفسي في شيء سبقني إليه الفشل . . فكنت ذلك الإنسان الذي لا قاعدة له ولا يتمكن من أن يتشبث بقرار إنني أحلم يوماً . . .

ولم يكمل عبارته بل أضاف .

ـ حدثني كيف رسمتها ؟ . كان كالعطش الذي يرى ماء وفي قرارته يعلم حقيقة السراب .

ـ هذا هو (حوينا) .

ـ يعني بيت . . . وكيف هو (حويكم) ؟ .

ـ لأنه كان يحتوينا يوما . . . لكن أبي ذهب ولم يعد .

هز عمرو رأسه وهو يحس أن حماسه يختنق : ـ اسألك لتحدثني عن اللوحة وما أراك إلا تتحدث عن نفسك وخرجت من قاع قلب زيد كلمات تعاني الألم :

ـ أبي عبد الحي مات وذهب للذي لا يموت . . . هذا آخر ما أجده . .

أحس عمرو أنه من الأجدى أن يغير نغمة الحزن فقال

ـ ألا تحس بنشوة النصر ـ ليتني أنتصر ـ وهذا هو المعرض الثالث عشر الذي تفوز فيه ! ! .

ـ أتدري ياعمرو كيف نجحت في رسم البيت هذا ؟ .

ـ لا .

ـ لقد رسمته من القاعدة حتّى ارتفعت الجدران كما هو الحال في بيت أبي ، أما بيتّي فالعكس .

ـ أهذا هذيان ! ؟ .

ـ بل الواقع . . . تخرج أبي على يد سنين طويلة وخرجت أنا .

شرد به الخيال وقفزت نظراته إلى أعلى وبدأ وكأنه يقرأ أو يستلهم الكلمات :

ـ انظر إلى الداخل . . . كان يحدثني فيقول أن سمو آمالك علقت نظراتك في الفضاء ، فكنت لا تنظر إلا إلى أعلى ولكنك وأنت تكبر كان هناك شيء أجهله جعل يجذبك إلى القاع ويتشدد في جذب اوتار عينيك ولولا ارتباطهما بالسماء لحدثت كارثة . . . لقد كدت يوما تدوس قلبك ، القلب الذي يداس جعل الضحك ينثال من بين شدقي عمرو . . .

التفت . . . ولكن أحدا لم يكن ليهتّم له . . . فجرى نظره إلى جانب اللوحة . . . أهي في شروق أم غروب . . . لا يدري . أتت مجموعة من الأساتذة والفنانين هنأوا زيدا... ابتسم لهم وشع من عينيه شكر غامر . . ثم حينما ابتعدوا ، التفت إلى عمرو وقال بصوت يفيض بالجد والمرح :

– من خلال تطوري المتعاقب بدأت من الكلاسيكية ثم التأثيريه ثم التعبيريه وتلاها التكعيبيه ثم السرياليه ، حتّى وصلت إلى هذا المستوى .

تراخى جده واسترخت ابتسامة على حديثه عندما قال :

– أتدري كيف بدأت أتعامل مع التجريدية التّي رفضتها ؟ .

فهز عمرو رأسه بالنفي :

– لقد رسمت نخلة وجردتّها من جريدها وقلت هذا هو التجريد .

ولم يستطع عمرو إخفاء قهقهاته المحببة التّي دوت في أنحاء الصالة . . . التفت حوله ليري العيون تحدقه فخجل .... واسترجع نظراته إلى زيد وبقيت عيناه تضحكان .

الماضي يبعث في مخيلة الفنان . . . واستغرق في هذيان مر تبلله الدموع ..

– هذان البيتان بجوار بيتنا لبناته صنعها رجال من كتل اللحم والجهد والعرق .

ودار في مخيلته ما أضناه ــ سعيه أن يكمل ما بدأه أبوه ــ عليه أن يجز أعضاءه من أول شعرة في رأسه حتى أخمص قدمه ويعجن الجميع بفيض من عرقه ليكوّن اللبنات .

استرجع ذلك الذي حدث . . . ثم كيف أنه أصبح بفكرته كالمعتوه يدور ويضطرب .

صمت ثم تحرك خطوتين ومعاناة تطوقه من الداخل . . . أضاف :

شاخت السنوات والتحام أبي بها أصبح كزواج أبدي... كان يذوي وأصبح كمن يعاني من علة كل يوم وظننت أن الموت لا يجرؤ فيتقدم إليه . . . لقد كان أبي عظيما . كان قد جرى في ذاكرتي منشار وخرجت فكرة أن لا (مترادفات) وآلمتني كثيرا . . . نظرت إليه تمعنت . . . في وجهه يرتسم العطف والشفقة والتفاؤل . . . كان الشبه كبيرا في ملامحنا... لكنه ذهب ولم يعد .

ــ ما بالك . . . أخشى عليك من هذا الفوز . . . هل أصابتك لوثه ؟ ؟ .

ــ عمرو انظر إلى هذين البنائين . . . ألا تلمح أنهما بدآ يتطاولان ؟

أجاب عمرو بتعجب وسخرية بالغة :

– كيف يتطاولان وهما على لوحة . . . لكن قل لي أتعني ما تقوله ؟ بل ماذا يعني كل ما تقول ؟ .

– أتدري ماذا يعني . . . يعني الخراب . . . حانت النهاية للأسف ولم أصنع شيئا .

– نهاية من ؟ . . أحس أن حظي يعلم . .

فرك زيد عينين يكاد الدمع يتحجر في مآقيهما . وبقى عمرو صامتا .

– انهما يتطاولان وأنا أتقزم .

وأضاف بتحسر بالغ

– لذلك فازت اللوحة وخسرت أنا . . . بل سقطت .

– سقوط ؟ ! .

– نعم امتداد الكثيرين كان من أسفل إلى أعلى كهذين البنائين . . ولكن عندما عجزت عن مجاراتهم بدأت أقفز في الفراغ . . . رأسي تعلق في الهواء كطموحي وجسدي طمر في الرمل كالجذر كنت أموت وعنقي لا يتمكن من أن يصل بينهما . . وهكذا كنت أعيش في التراب وأتمدد فيه . اختفى عمرو فجأة . . . .

وصرخ هذا : – لم أعد أحتمل . . لم أعد أحتمل

وأمسك رقبته التي أحس وكأنها تكاد تنتزع . . . تلوى ثم تهاوى . . . .

\- ٢ -

لم أعد أحتمل وعلا صراخه . . . فزعت الزوجة . . . طبطبت على خده وقالت .

\- ماذا حل بك . . لقد أفزعت الطفل . . كابوسك المزعج أيقظ الطفل .

\- كفي بالله عليك

وفاجأها بالسؤال عن الوقت .

\- . . . .

صرخ في وجهها :

\- لم لم توقظيني عندما دقت الساعة ؟ .

\- لكنها لم تدق . . . انظر . . . وما ذنبي أنا ؟ !! .

وبدا الوجل على ملامحه وهو يحدث نفسه بغضب : - كان يجب أن أتنبه لا أن أعتمد على هذه الساعة اللعينة .

ثم كان صوته واضحا وهو يقول :

\- كأنك لم تذوقي النوم لآلاف السنين . . لقد خسرت المسابقة . . خسرت اسمي . . فات موعد تسليم اللوحة - أفي هذا اليوم لا تدقين . . هذا اليوم بالذات .

وأخذ صراخ الطفل يعلو على رنين الساعة المفاجىء الذي أصبح كشيء بغيض .

قبض عليها وقذف بها الجدار فكادت أن تهشم لوحة خطية ولكنها سقطت أسفل منها وتوقفت ربما إلى الأبد. لحظات ثم أحاط المكان سكون عميق . . . مد الأب طرفه بحنو بالغ إلى طفله . . أخذه . . . أخذ يلثمه في فمه وضمه إلى صدره وكان توتـُّره يذوب وشعر بارتياح بالغ يملأ قلبه وهو يزيد في ضمه حتّى كاد يشعر أنه استكن في روحه ، ثم أخذ يسير إلى اللوحة الخطية واستشعرت عظامه المضطربة بالهدوء وأخذ يحدث اللوحة وهو يحدق في الكلمات .

ــ أيها الرجل الطيب أتسمح لي كلماتك أن أضم إليها وارسم بجوارها نخلة . . . لا أظن أنك تمانع في ذلك ، هذا هو ابني محمد زيد عبد الحي . . . لوحتّي الحية القادمة وأخذ صوته يعلو وهو يقرأ في صوت مسرحي متماسك يسمعه جمهور غفير اختصر في واحدٍ هو ابنه (الرجال لم يخلقوا للهزيمة وقد يتحطم الرجل دون أنّ ينهزم وإنها لحماقة أن يستولي اليأس على المرء كما أن اليأس خطيئة فيما اعتقد) ، وفي الركن الجانبي منها كتب بخط صغير ورفيع ــ ارنست همنجواي الوفاة عام ١٩٦١م .

من حكايات جدتي

عبد الرحمن مشتاق

حكت لي جدتي وكنت صغيرا ، مئات الحكايات الغريبة الجميلة عن الفرسان ذوي الجياد المطهمة والسيوف البراقة المذهبة وحبيباتهم الأميرات الحسناوات اللائي يدفعنهم إلى القتال وسفك الدماء وركوب المخاطر لكسب ودهن ونيل رضاهن الذي يظل بعيدا في كل حكاية . وعقلي الطفل لم يكن يقبل القتل بلا سبب ولا المغامرة من أجل الحبيبة المتكبرة ، حكت لي عن الأبطال الذين يجوبون البلدان والأعصار بحثا عن كنز مدفون في مغارة سحرية تحرس مداخلها الوحوش الأسطورية برؤوسها المتعددة وأفواهها التي تنفخ اللهب حكايات كثيرة تشدني إلى حضنها الدافيء كل مساء وتترك في ذاكرتي آلاف علامات الاستفهام ، حكايات لم تكن تنتهي ، وكل واحدة تنسيني التي سبقتها إلا حكاية ظلت تعيش في خاطري حزنا ودهشة واستغرابا بصدى صوت جدتي الراعش البعيد

يتردد في مسمعي حتى اليوم ولم تستطع كل الحكايات بعد ذلك أنتنسيني إياها ولم تستطع كل الأحداث التي عشتها أن تزعزع إيماني بأن الله هو الملاذ الأول والأخير للإنسان في أوقات النعمة وفي أيام الشقاء .

يقول صدى صوت جدتي العجوز القادم من وراء الموت والأيام :

« يحكي ياصغيري أن أمرأة بدوية جميلة الوجه والقد ، لطيفة المعشر واللسان ، وهبها الله كل ما تشتهيه النفس من حسن ومال وجاه ، فهي وحيدة لشيخ قبيلة ما ، وزوجة لرجل من فرسانها هو ابن عمها ، إلا أن كل ذلك لم يكن ليمنحها السعادة التي ترجوها ، ولا الهناء الذي تحلم به ، فزواجها تم حسب التقاليد التي تحتم أن تكون الفتاة من نصيب ابن عمها مهما كانت الظروف التي تحول بينهما ، والرجل الذي اختارته بعقلها وقلبها لم يستطع أن يوفر مهرها المعجز الذي طلبه منه أهلها حين تقدم لخطبتها بعد أن عرفوا امكانياته . فلم يكن منها إلا أن تدفن عواطفها النقية في بئر حزن صنعته بنفسها ، واختارت أن تستسلم لمصير ليس من بديل له إلا الموت أو العار ، آملة أن تحمل لها الأيام النسيان ، وأن تجد في أطفال تنجبهم سلوانا وراحة بال لكن السنوات مرت دون أن ينعم الله عليها ببركة الذرية ، وظلت حياتها خاوية إلا من الدموع والعذاب الذي كان زوجها يغمرها بهما كلما تذكر حبها

لذلك الفارس الغريب الذي مر بديارهم ذات يوم يطلب الزاد والراحة فقدمتهما له ومعهما قلبها . ورغم عذابها وآلامها لم تفقد الأمل برحمة ربها فراحت تتردد على السحرة وضاربي الرمل ممن أخبرتها بعض النسوة أن عندهم الدواء الشافي من علتها المزمنة ، ولم تترك نوعا من الأعشاب البرية التي تفيد في مثل حالتها إلا وتناولته سرا فصار عندها العديد من الأحجبة والتمائم ، وحفظت مئات الأدعية والرقيات ، ونذرت عشرات النذور ، لكن السعادة ظلت نائية عن قلبها السقيم ، ولم يعرف النور طريقه إلى بيتها المظلم .

أرمضها الشوق لطفل تحنو عليه وتذيب في وجوده كل عاطفتها وحياتها ، وازدادت قسوة الزوج عليها فساءت حالها وهزل عودها وصارت تهذي في سباتها أنها ستخطف طفلا وتهرب به ليكون ولدها حتى ظن أهلها أن مساً من الجنون قد أصابها وأنها صارت تشكل خطرا على أطفال الحي ، وقد أكد نطاسي يدعي العلم والمعرفة أن لاسبيل إلى عودتها لحالتها الطبيعية طالما هي عاقر ، طلب ابن عمها أن يقتلها تخلصا من من جنونها وشرها ،لكن والدها رفض وبإصرار أن تقتل ابنته الوحيدة وفلذة كبده ، وأمر لها ببيت منعزل تقيم فيه وترعاها بعض النسوة لعل الله يمن عليها بالعافية ويعيد لها عقلها الذي فقدته . بكت كثيرا حين بلغها الأمر وأكدت للجميع أنها لم تعد ترغب في شيء إلا حياتها العادية ، لكنها لم تجد اذنا صاغية

أو قلباً رحيماً فقد أغلق الخوف كل المنافذ التي توصل بينها وبينهم ، ونقلوها إلى بيتها المنعزل بعد أن أوصوا أطفالهم إلا يقتربوا منها .

لم تمض أيام عليها حتى طلقها ابن عمها وتزوج امرأة أخرى بينما كانت قصتها تنتقل بين القبائل بعشرات الصور والإضافات ، وقبلت الواقع بكل جراحه وآلامه دون أن تستسلم للجبن والضعف لأن إيمانها برحمة ربها لم تزل في أوجها .

ذات ليلة غاضبة والريح تعوي كالكلاب المسعورة معلنة عن عاصفة رملية ، أبى عليها النوم وحاق بها خوف مجنون دفعها لأن تفكر في القدوم إلى بيوت أهلها تتوسل إليهم أن يخففوا عنها تلك العقوبة التي لم تفعل شيئا يستحق أن تعاقب بها ، لكنها تراجعت عن تفكيرها هذا حين خطر لها أنهم قد يتخذون من خروجها إليهم في هذا الليل العاصف ذريعة تودي بحياتها فاستسلمت لخوف أهون من الموت واتخذت من احدى زوايا البيت ملجأ تحتمي به وتستعيد فيه بعض ذكرياتها الهانئة الراحلة لعلها عبر تذكرها تنسى بعض خوفها وألمهاتذكرت أمها بكل ماغمرتها به من حب وحنان قبل أن تذهب في رحلة أبدية لاعودة منها ، واستعادت أيام صباها الأولى وما امتلأت به من حيويه وفرح وزهو ، وتذكرت حبيبها وهو يأتي إليها قاطعا المسافات البعيدة وعلى شفتيه أعذب الكلمات وفي عينيه أخلص النظرات وأرقها ، وبين يديه كل عذرية المحبين

وعفتهم لم يطلب منها أبدا إلا أن تكون لحظات لقاء اتّهما عهد وفاء لاتبدله الأيام ، لكن كل ذلك انتهى بغير إرادة منها ومضى كل الأحبة في دروب الضياع . كادت تستسلم للنوم بعد أن أعياها التذكر حين طرق بابها طارق أخبرها من وراء الحجاب أن راحلته تاهت به في عتمة الليل وعنف العاصفة ، وأن بصيص الضوء المنبعث من بيتها شده إليه هربا من العاصفة . صوت هذا الطارق الغريب جعل جسدها يرتجف كأنها مصابة بالحمى . أنه صوته الذي غاب عن سمعها سنين طويلة ، يعود في هذه اللحظات العصيبة ليحيى موت روحها ويبعث الحياة في عودها المشرف على اليباس ، حاولت أن تتكلم فلم تخرج الحروف من حلقها إلا آهات متقطعة طال به انتظار الرد استأذن بالدخول ودلف إلى داخل البيت ، ألفى أمامه امرأة مغشيا عليها وجسدها يرتعش كالطائر الذبيح ، اقترب منها وما كاد يرفع رأسها بين يديه حتى عرف فيها حبيبته ، فصرخ صرخة رعب مكتومة أخذها بين ذراعيه وأسند رأسها إلى صدره وراح يهدهدها حين استفاقت من غشيتها وهدأ روعها روت له قصتها وما آلت إليه حالها وطلبت منه المغفرة والصفح عما سببته له من عذاب وآلام مع بواكير الصباح الأولى وقد هدأت العاصفة قليلا انطلقت راحلته تحملهما معا وتخب السير باتجاه دياره البعيدة . حيث تزوجا هناك بعد أن عادت إليها نضارتها وشبابها وغادرتها الأحزان والهموم .

في الشهور التالية ظهرت عليها بوادر الحمل فلم تصدق

حتى أكد كل من لديه معرفة بهذه الأمور أنها حامل ولم يأل زوجها الذي امتلأ قلبه بالسعادة والبهجة جهدا ليوفر لها كل أسباب الراحة والهناء طوال الشهور التسعة التي ازدانت بالأفراح والليالي الملاح . وفي يوم ولادتها أقيمت الزينات ورفعت الرايات الملونة وزاد المسرة والانشراح أن المولود كان ذكرا .

لم يكن عمر الطفل قد تجاوز ستة أشهر حين تناهى إلى أسماعها خبر تتناقله القبائل أن والدها قد حزن حزنا شديداً لفراقها ، وأنه نذر أن يعفو عن أي ذنب اقترفته أو خطأ وقعت فيه أن هي عادت إلى أهلها ولن يعزلها في بيت منفرد بعد ذلك . اطمأن قلبها الحنون رغم جراحه للخبر وصار الشوق يتحرك في داخلها مطالبا أن تعود في زيارة إلى أهلها لتنقل لهم الخبر السعيد وتعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي فمن غير المعقول أن تظل صورتها مشوهة بين من عاشت بينهم طفولتها وصباها. استأذنت عمها للسفر إلى ديارها بعد أن ناقشته بما يجول في خاطرها عن أبيها فأذن لها إذ كان زوجها قد خرج لشأن يغيب فيه أكثر من أسبوع وأوصاها الا تغيب كثيرا .

خرجت محملة ببعض الهدايا ويرفقتها رجال أوصلوها حتى مكان قريب من حيها القديم كانت الشمس البرتقالية تميل نحو المغيب وقد تلون الافق الغربي بلون وردي اخاذ حين وصلت الحى الذي عرفت على أرضه الحب والتفتح على مباهج الحياة . قلبها ينبض في صدرها كعصفور بري احكمت حوله

قضبان قفص مذهب . حملت ولدها بين ذراعيها وهي ترهف السمع لصوت الزغاريد والأهازيج التي — سيستقبلونها بها ، لكن الصمت ظل يضم تحت جناحيه كل الأشياء من حولها . والتجهم يرتسم على وجوه شمعية اللون والقسمات لكل من قابلتهم وكلهم تعرفهم ، وسؤال يتردد : ها ما تم يتحول إلى ما يشبه الصراخ « من أين لك هذا الطفل ؟ وابن من هو ؟ حديثها كان ينبض بالصدق وهي تخبرهم بالذي — جرى لها ، لكن ما تعكسه وجوههم الجامدة التعبير جعلها تحس أن احداً منهم لم يصدق ما ترويه رغم أنهم يعرفون — وكما قالوا — أن زوجها الأول ابن عمها عقيم ولم ينجب من زوجته الثانية . في المساء وحين استسلم الحي بما فيه لسكون يخبيء في أعماقه فجيعة تنسج خيوطها في اجتماع مجلس كبار الحي وشيوخه الذين احتدم نقاشهم حولها ، ثم صدر الحكم عليها وعلى ولدها بالموت إذ اعتبروها ولدته سفاحا ، أن كان ابنها فعلا ، ولاحياة لفاجرة وابن حرام في مجتمع الاشراف والسادة حسب رأيهم . تناهى إليها القرار الجريمة عن طريق احدى قريباتها وكانت تحبها ، وادركت أن الجهل والغضب قد اعميا قلوبهم فلم يعودوا إلى الله في قرارهم . ولا مفر أمامها من الهرب قبل أن يفتكوا بها وبولدها . كان الليل الأسود الحالك ستاراً تحتمي به وهي تنطلق بولدها على غير هدىً ، تاركة لقدميها حرية السير حيثما توصلها الدروب الصحراوية الضائعة . وخوفها من بطش الوحوش البشرية أقل كثيرا من خوفها

من وحوش البرارى وكواسرها ، وإيمانها بالله أكبر من كل الأخطار التي يمكن أن تهددها وهاهي في هذا الخضم الهائل من الرعب والظلام والضياع ترفع يديها إليه ضارعه أن يحفظ حياة صغيرها .

مضى بها الليل بطيئا حزينا ممزق الساعات حتى إذا نثرت شمس الصباح أشعتها الذهبية على الروابي والبطاح . ألقت نفسها في أحضان واحة صغيرة تناثرت في أرجائها شجيرات نخيل مثقلة بالثمار . وتفجر في ركن من أركانها ينبوع ماء لجيني صاف ، تنعكس على صفحته الشفافة النقية ظلال أعشاب طيبه تهدهدها اصابع نسائم الصباح الرقيقة ، اختارت لولدها مكانا رطباً ظليلا بينما تبحث لنفسها عن شيء تقيم به أودها وتسكن به جوعها لعل الحليب الذي جف في صدرها يعود لتطعم منه رضيعها الذي لم يذق نقطة منذ ساعات . أكلت بضع حبات تمر تساقطت عند جذع نخلة هرمة ، ومضغت بعض الأعشاب النامية على حافة الينبوع . لكن الحليب ظل محتبسا عن حلمتيها . والوهن يخدر مفاصلها وهي تصر على المقاومة أخذ الطفل يبكي فلم تجد أمامها إلا أن تبلل طرف شالها بالماء وتدلك به حبة تمر ثم تعصر الرحيق في فم الصغير المفتوح ، كررت العملية مرات عديدة حتى بدت على ملامح الوجه الصغير المعذب علامات انتعاش وراحة . وما انقطعت كل الوقت عن طلب العون من ربها والدعاء له أن يفرج كربها

ويزيل غمّها . أسندت رأس الصغير إلى صدرها وراحت تهدهده باكيه . لكنه ابى النوم والسكوت واعطاءها فرصة تنال فيها شيئا من الراحة بعد مالاقته من التعب والعناء . كادت تستسلم لنوم فسرى في غمرة السكون الذي يحيط بها ولا يقطعه الاحفيف أغصان متلاطمة أو شدو طائر ينتقل من غصن لآخر ، حين سمعت وقع أقدام وأصوات قطيع من الظباء ترد الماء لتطفيء ظمأها في هذا الحر اللاهب . فاستجمعت كل مالديها من قوة ونهضت متكلة على الله باتجاه القطيع العطشان ، نفر القطيع وتفرقت الظباء في أنحاء الواحة مصدرة أصوات خوف متتالية الاواحدة ظلت واقفة تنظر إلى المرأة المتقدمة حاملة ولدها على صدرها بعينين حانيتين . دنت منها حتى لامست ظهرها بكفها . ربتّت عليه ومسحت رأسها بهدوء ، والظبية مستسلمة للمسات المرأة ، مدت يدها إلى ضرع الظبية فألفته ممتلأً بالحليب ، قربت منه فم صغيرها المفتوح فتدفق الحليب دافئا فيه ، وراح يعب منه بنهم بينما أغمضت الظبية عينيها باطمئنان والأم تقبلها بحب عظيم وتتجه إلى الله بالشكر ، انتهى الصغير من تناول وجبته الدسمه فهمهمت الظبية . وانطلقت تلحق بالقطيع بعد أن شربت من ماء النبع الصافي والأم تودعها بعينين دامعتين ودعوات مخلصة . في غروب اليوم نفسه عاودت الظبية زيارتها للام وولدها فأرضعته ثانية ورحلت ، وما كادت تبتعد حتى تناهى إلى سمع الأم وقع حوافر خيل تقترب من بعيد ، أدركت لمجرد سماعها الصوت

أنهم أهلها جاؤا يبحثون عنها في هذه الواحة البعيدة ، حملت رضيعها واتجهت حيث وجدت منفسحا عشبيا كثيف الأعشا ب ألقت بنفسها في حضنه هلعة مرتعدة ووجيب قلبها تسمعه بأذنيها . قال أحد الفرسان وهو يترجل عن فرسه (لنفتش هذه الواحة لعلها مختبئة في أحد أركانها) . أجاب اخر وعرفت في صوته أباها (لا أعتقد أنها وصلت إلى هنا ، والأفضل أن نرتاح قليلا ثم نعود أدراجنا ، فقد نلنا ما فيه الكفاية من التعب والارهاق) صاح صوت كان لابن عمها وزوجها السابق : (وندعها تفلت من أيدينا تاركة لنا العار يلطخ جباهنا) قال والدها بغصة : (لابد أنها كانت وولدها فريستين لوحش من ضواري البوادى) قال ابن عمها بحقد (لكم أود أن يكون ذلك قد حدث فتكون كفتنا شر دمها وخطيئتها) رد والدها : (لنتق الله فيما فعلنا ، لقد كان علينا ان نحكم العقل في قرارنا ولا أظننا الاقساة قد ظلمنا امرأة بريئة وطفلا برئيا) . قال ابن العم شامتا : (كانت علامات العار بادية على محياها) صاح الوالد بغضب : (اسكت يا ابن أخي ، إنما نحن تصورنا ذلك ، لابل أنت الذي ملأتنا حقداً عليها . . والله لن يهدأ لي بال حتى أعرف الحقيقة . وسيكون ثمن دمها غاليا جداً) كادت تخرج من مخبئها وتذهب إلى ابيها لترتمي بين ذراعه تحتمي فيهما . لكن تصايح الرجال علافشلّ حركتها ، وماهي إلا ثوان حتى صرخ والدها صرخة ألمٍ مزقت كبدها المعذب بينما أرتفع صوت ابن عمها مقهقها بجنون وعصبية : لقد آن

لك أن تنتهي أبها العجوز الخرف ، وآن لي أن أكون سيد القبيلة وشيخها . . هيا أيـُّها الرجال لنعد إلى الحي ونعلن الحداد على عمي العزيز الذي تاه عنا فأكلته الوحوش) . . وابتعدت الخيل في الظلام حاملة على ظهورها المجرم ورفاقه . قفزت من مكمنها وقد حبس هول ما سمعت الدموع في مآقيها والصوت في حنجرتها ، وأسرعت إلى المكان الذي كانوا فيه ، وقعت عيناها على مشهد جمد الدم في عروقها كان خنجر المجرم ما يزال مغمدا في صدر أبيها والدم ينزف من جرحه دافئا غزيرا ليغرق ثيابه وينساح على الأرض التي ارتمى فوقها بلا حراك .

انكبت عليه صارخة مولولة وصوتها يضيع في الفضاء الرحب الساكن من حولها ، كفت عن الصراخ فجأة إذ لفحت وجهها انفاس عميقة بطيئة ، انصتت للقلب المطعون فالفته ينبض نبضات راعشة متقطعة أمسكت قبضة الخنجر واستعانت بالله وسحبته بحركة واحدة ، أطلق والدها الجريح آهة طويلة وتجهم وجهه . خلصت الشال عن رأسها وغطّت به جرحه النازف واستسلمت للدعاء لربها ، تنبهت على صوت فرس والدها وهي تحمحم وتضرب الأرض بقدمها مطلقة زفيرا متواصلا . أخذتها من مقودها . وبقوة دبها الله في وصالها رفعت أباها الجريح على ظهرها ثم سارت بها حتى وصلت إلى رضيعها المستسلم لنوم عميق حرم منه في الليلة السابقة فاخذته في حضنها وأطلقت للفرس العنان في سكون الليل المدلهم متوجهه بهم في

اتجاه معاكس للاتجاه الذي سار فيه المجرم ورجاله .

كاد ينتصف النهار حين لاحت لعينيها المرهقتين خيالات فرسان تتراقص مع السراب على البعد ، صارت تصرخ كمن فقد عقله وتغذ السير نحوهم ، لم يعد يهمها من يكون هؤلاء الرجال أعداء ام اصدقاء فوالدها يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة متأثرا بجرحه النازف ، وولدها جف الصوت في حلقه لكثرة ما بكى ، أما هي فكانت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة . أسرع الفرسان نحوها إذ رأوها ، كان على رأسهم زوجها الذي عاد في غيابها إلى الحي وعلم برحيلها فخرج في طلبها وقد أحس أن مكروها سيحدث لها ولولده . لم يكد يعرف فيها زوجته لأول وهلة وقد ضاعت نظرتها في شحوب وجهها وتورم عينيها وتمزق ثيابها وتناثر شعرها المغبر ، بينما شلت رؤيته حركاتها فراحت فيما يشبه غيبوبه لم تستفق منها لأيام معدودة .

يقولون ياصغيري الحبيب أن والد المرأة شفي من جرح الغدر الذي أصيب به ، واسترد عافيته بعد فترة من الزمن ، ثم خرج مع مجموعة من فرسان القبيلة الثانية وعاد إلى قبيلته التي فوجيء ابناؤها بعودته فاستقبلوه بالحفاوة والتكريم بعد أن اكتشفوا خطوط الجريمة التي رتبها ونفذها ابن اخيه ليصبح سيداً عليهم . أما المجرم فلم يجد أمامه إلا أن يقتل نفسه بيده

منتحراً هربا مما فعله من غدر بعمه الذي رباه وأغدق عليه الخير والمحبة وزوجه ابنته ، بينما تفرق أصحابه الذين شاركوه في جريمته في البوادي وتحولوا إلى لصوص وقطاع طرق .

سألت جدتي يومها وذهني الصغير يحاول أن يستجمع كل أطراف الحكاية :

وهل وجدوا الظبية التي أرضعت الولد بعد ذلك ؟ وماذا فعلوا بها ؟

دثرتني باللحاف وقالت :

تلك حكاية سأحكيها لك في مرة قادمة .



العقوق

فهد بن علي النفيسه

. . ولكنَّ غيظه بلغ منه الغاية – كعادته في مثل هذا الموقف – فاحْمَرَّتْ عيناه ، وانتفخت أوداجه ، كأنما أراد أن يقول شيئاً فخانته الكلمات واستعصت على ارادته ، فتمتم وزمجر في آن واحد ، وتبع ذلك حشرجة مخيفة ، وارتعشت أطرافه ، وهَمَّ بأن يمد إليها يده بصفعة ، أو يرسل إليها رجله بركلةٍ ، لكنه لم يفعل .

وكانت هي منه على بعد خطوة واحدة منحنية على طفلها الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره ، فقد كان يبكي بصوت في كل نبرة منه فزع وجزع ، ولم يشغلها ذلك عن شتم زوجها ، ومبادلته الغيظ بالغيظ ، وأن كانت أنوثتها واعتدال طبعها يقعدان بها عن مثل شراسته .

أما بقية الابناء فقد تفرقوا في انحاء الدار لكل منهم شأن

يغنيه ، على أنهم جميعاً يلتقون بشئونهم في هذه اللحظة البائسة عند هذا الشقاق الذي انبعث من جديد بين الأم والأب .

أحدهم — وهو في السابعة من عمره — وقف هناك عند باب الممر المؤدي إلى الغرفة حيث يرى أباه ولا يرى أمه ، وفي قلبه حسرة تظهر سماتها على عينيه الدامعتين ، وفي كل خلية منه هلع وحيرة تظهر إماراتها في وجنتيه الشاحبتين ، وجمدت أطرافه فكأنه تمثال من الصخر لاحول له ولا قوة ، حتى أجفانه كأنها قدر عليها ألا تنطبق ، وإن كان يشع من بينها بصيص يوحي إليك بأن وراءها قلبا وروحا ، وتختلط في ذلك البصيص المعاني البائسة إلا معنى واحدا يظل متميزا ، هو ذلك التوسل الملهوف إلى الابوين بأن يكفا عن الشجار .

أمّا الفتاة التي في الثانية عشرة من عمرها ، وأخوها الذي يكبرها بسنتين فقد أغلقا على نفسيهما باب غرفة مجاورة . فراحت هي تبكي بصمت بكاء يتجلى فيه الجزع والضعف واليأس ، وراح هو يتلهى بالستائر يمرر عليها أصابعاً مرتعشة باردة كانما يطلب ما فيها من رقة ، أو يلتفت إلى النافذة يفتحها حيناً ويغلقها حيناً .

وفي الغرفة ذاتها التي يختصم فيها الأبوان قعد الابن الأكبر في الزاوية التي تلى الأم ، والابن الذي يصغره في الناحية المقابلة . أما الأصغر منهما فكأن لم يكن موجوداً ثمّ ، فأعضاؤه

قد قتلها السكون وعيناه قد غشّاها الذهول ، وذهنه قد تاه في عالم لا تعرف معالمه ، وأما الأكبر فقد كان جسده النحيل غير قادر على حمل ما بنفسه ، وكانت نفسه العليلة التي جرحتها الايام وأكثر الطب عبثه بها غير قادرة على حمل ما تراه ، فهو موشكٌ على النهوض تارة ، ومرتد إلى مجلسه اخرى ، بينما عبارات متقطعة مرتجفة لاتكاد الفاظها تتماسك ، برغم كل ما حصله من علم وادب . .

أمر أبويه بان يكفا . . اتجه إلى أمه بالحديث . . سألها أن تصمت . . ثم اتجه إلى أبيه بحديث آخر أشد صرامة وأعنف لهجة ، لكن ألفاظه كلها ذهبت هباء .

وغادر الأب فجأة الغرفة متجهاً إلى الطرف الآخر من الدار حيث تسكن زوجته الأخرى وأبناؤها التسعة .

واحتضنت الأم ابنها الأصغر وجلست في ناحية تبكي وتندب حظها أو تشتم زوجها .

وهكذا أوشكت النار على الخمود لولا شتائم الأم الممزوجه بعبراتها ، وهذا الاحساس الغريب الذي تولى الابن الأكبر فنزع عنه ثوب الهدوء ، فهو يطوف بالغرفة ذاهباً آيبا ، يفرك احدى يديه بالأخرى ، حتى إذا اقترب من الحائط دفعه بهما كأنما يريد زحزحته .

غير أن الأب لم يترك هذه البقية الباقية من نار الشقاق التي

أشعلها في الدار تخمد وتتلاشى ، فاندفع مرة أخرى إلى مسرح النزاع شاتما لاعنا مرعدا مزبدا ، وانزل عصاه على ظهر الأم التي انطوت على ابنها الأصغر كما تحتضن الورقاء فرخها في اليوم العاصف المطير . فلم يكد الابن الأكبر يرى ذلك حتى صرخ صرخة مدوية ، واندفع إلى أبيه يمنعه من ضرب أمه ، لكن هذا دحره وصاح فيه قائلا :

« اخرج من داري أيها العاق . . . أخرج من داري . . . تريد أن تضربني ؟ ! . . . أنت لست ابني . . لست ابني . . . أخرج عليك اللعنة . . . أخرج . . . »

وبهدوءٍ غريب تحرك الابن رويداً رويداً نحو باب الغرفة ثم انطلق يجري في الممر المؤدي إلى الباب الخارجي ، فارتطم بالحائط المقابل حيث ينعطف الممر ، فتوقف لحظة ممسكاً رأسه بكلتا يديه كأنما يحاول أن يعيد إليه تماسكه ، لكنه لم يلبث أن واصل طريقه جرياً إلى الباب الخارجي ، في حين كانت نداءات الأم : « ابني . . ابني » تجد طريقها إلى أُذنيه وقلبه ، وما كاد يغادر الدار حتى شده شيء في نفسه للوقوف فتوقف وجال بنظره في انحاء الطريق . .

كانت هناك جمهرة من الأطفال قرب الدار تنصت إلى ما يجري بها من نزاع وهناك في نافذه المنزل المقابل رأس رجل ينظر وينصت ، فانبعث صارخاً : » ايتها الأفاعي

الملعونة . . . اذهبي بعيدا عني . . . اذهبي بعيداً عني . . واظهراه . . . عليك اللعنة ايتها الأفاعي . . أنيابك السوداء في ظهري . . »

ورفع يديه ووجهه إلى السماء قائلا بصوت كله ألم وحسرة « ربي . . ارحمني من هذا البلاء » .

وانطلق عائداً إلى الدار فارتطمت احدى قدميه الحافيتين بعتبة الباب فسقط ، لكنه نهض سريعا واندفع في الممر يجري حتى وقف بين يدى أبيه في الغرفة ذاتها التي يضطرم فيها أوار النزاع فهتف بصوت أجش تخنق بعض ألفاظه عبرة مرة قائلاً :

« أنا لست عاقا . . . أنا لست عاقا . . . أنا مظلوم . . . ارحمني من هذا الطاغية ياربي . . . » .

ثم نزل على الأرض يبكي بنحيب أجش متصل ، واسرعت إليه الأم ، لكن الأب أبعدها عنه بركلة من قدمه ، وانحني عليه فشده بشعره إليه وصاح فيه : —

« تشتمني أيها الملعون ؟ ! . . . تشتمني أيها العاق الكافر . . . ؟ ! أخرج من دارى . . . أخرج عليك اللعنة . . . »

أما الأم فالتفتت إلى الأب تشتمه وهي تبكي وما حيلتها غير الشتم والبكاء .

وأما الابن فأفلت من يد الأب وأسرع إلى باب الغرفة فامسك باطاره الملاصق للحائط وضمه إلى صدره كأنما يضم إليه انسانا ودودا ، لكنه لم يلبث أن تركه وأرسل نظراته الفزعة إلى الأب الذي انهال بشتائمه على الأم . وما هي إلا دقيقة من الذهول حتى ارتفع صوته : « أنا لست عاقا . . اذهبوا بعيدا عني . . واظهراه . . . » ، واختنق صوته بالبكاء لحظة ، لكنه عاد يصرخ كأن لم يبك قائلا : « ايتها الحجارة السوداء ... ايتها الأفاعي السوداء . . . . . اذهبوا عني . . . لاتقتلوني» ، وانبعث يضحك قائلاً بصوت أدنى إلى الهدوء : « لاتقتلوني . . اذهبوا عني جميعاً . . . اذهبوا » . وارتفع صوته مرة أخرى بقوله : « أنا لست عاقا . . . أنا لست عاقا . . . » ثم انقطع صوته فجأة في حين استولى على الأبوين ذهول فجمد كل منهما في مكانه . أما هو فخطا إلى أمه خطوات وئيدة مثقلة باحساس غريب حاد حتى وقف أمامها فأمسك بكتفيها وخاطبها بصوت هادىء : (لاتخافي . . . أنا لست مجنونا . . أنا لست مريضا . . . أنا لست طفلا . . . عشرون عاما ترقد في أحشائي . . . أنا لست عاقا . . . وأنت أيضا لست عاقة...) وارتفع صوته وخالطه بكاء مر ، وكأن كلماته كانت سهاماً أصابت كبد أمه وهو يقول (لكنني سأموت . . . واظهراه... أين أبي ؟؟) .

وكأنما وجد أباه فتوجه إليه بوجه مصفر وعينين واهنتين

قائلا : (أقتل هذه الأفاعي يا أبي . . . هذه الحية السوداء التي سكنت في ظهري . . واظهراه . . . الحية يا أبي تريد أن تقتلني . . .) .

واشتد بكاؤه ، وخارت قواه ، فنزل إلى الأرض ممسكا ظهره باحدى يديه كأنما لدغته حية فيه حقا ، وراح يتوسل إلى أبيه : « أبي . . أنا لست عاقا . . . الحية في ظهري ستقتلني يا أبي . . . رحمتك يا أبي . . . واظهراه . . » .

وتغير صوته حين اندفع إلى باب الغرفة قائلا : « سامحني يا أبي . . فالحية قد لدغتني في ظهري . . أنا لست عاقا . . لقد نزل السم إلى قدمي . . اطردوا عني الأفاعي قبل أن أموت . . . واظهراه . . . واظهراه . . . »

وأنطلق يجري إلى خارج الدار ، ولم يكد يلقي نظره على الطريق حتى صرخ بأعلى صوته : « أنا لست عاقا . . أنا لست عاقا . . . ياربي رحمتك فالحية ستقتلني . . واظهراه . . » .

واندفع الأب إلى خارج الدار ، فلما رآه الابن فر على امتداد الطريق يركض بكل جهده ، فركض الأب خلفه يناديه : « قف . . قف ياصالح . . قف . . » . فلما لم يستجب صاح الأب : « أيها الناس . . ابني . . ابني . . » .

لكن الابن ظل يركض وهو يولول أو يرفع صوته بقوله : « أنا لست عاقا . . . . »

وهرعت الناس من انحاء شتى ، وما هي إلا دقائق حتى كان بين يدى رجلين من أهل الحي ، ومن حوله رجال كثيرون ، من حولهم نساء وأطفال . وكل يسأل الأب عن خبره فلا يحير جوابا ولا يفوه بكلمة واحدة .

أما هو فقد سكن هنيهة واعتراه ذهول بالغ . ثم صرخ فجأة : « الأفاعي ستقتلني . . . ابعدوني عن هذه الأفاعي.... اخرجوا الحية من ظهري . . » وانخفض صوته حين قال : « اتركوني . . اتركوني . . سأذهب إلى أمي . . الحية ستقتل أمي . . يارب رحمتك بي . . » .

واحتدم غيظا واشتد على قبضة الرجال يريد الافلات منهم وعلى صراخه بقوله : « أمي . . أمي . . الحية ياربي . . الحية في ظهري . . » وسكت بينما كانت أنفاسه لاهثة ونظراته متقدة فزعا ثم صرخ : « الأفاعي . . لاتقتلوني . . ابتعدوا عني... ابتعدوا عني . . . اتركوني . . . سأموت . . . واظهراه . . واظهراه » .

وانهمرت دموعه بغزارة ، وأخذ ينحب بشدة ، واستند إلى إلى أحد الرجال فألقى برأسه على منكبه . .

كان اخوته يبكون من حوله ، وأطفال الحي بينهم يسألونهم عن شأنه ، والنساء — كعادتهن — يثرثرن بأحاديث كثيرة ، فمنهن من تظهر الاشفاق عليه ، ومنهن من تخوض في قصته ومنهن من تنعته بالجنون وتسأل الله لها وله العافيه .

والرجال يسألون أباه عن خبره فلا يحير جوابا ، فيتبادلون الرأي بينهم ويتجامعون الأمر .

أما هو فلا ينفك يتخبط في أفعاله وأقواله باكيا تارة ، صارخا أخرى ، مرددا قوله : « أنالست عاقا . . واظهراه.. ابعدوا الأفاعي عني . . الحية في ظهري تريد أن تقتلني . . »

وأما أمه ففي الدار قد قعدت بها مصيبتها عن حضور هذا المشهد الأخير من مأساة ابنها ، ومن حولها نجدة من النساء يدفعن عنها شيئا من بأس هذه الداهية . . ولكن ؟ !



وكانت البراءة هي الضحية

نايف حامد عبد الله همام

العناد يعمي . . هذه الحقيقة عرفتها بل ولمست معناها الحقيقي من خلال تجربة انسانية . . لم أعشها ولكنني عايشتها . . وخرجت منها بفهم عميق لهذه الحقيقة

قال لي ذلك وقسمات وجهه وتنبيء عن انفعاله وتصارع الاحاسيس الانسانية في داخل نفسه وكان يبدو عليه الحزن والاسى ويبدو منه أن ثمة موقف أليمٍ ومعاناة انسانية عصيبة خلف هذا الكلام وفي تلك النبرات الحزينة المتجلية في صوت متهدج كان يحدثني من خلاله . . . واستمر في حديثه عن تلك القصة المؤلمة بأسلوب شيق جعلني أستمع إليه ، واتصور بخيالي الخصب مواقف وأشخاص القصة وكأنني أشاهد فيلما سينمائيا . . .

قال : في قرية صغيرة هادئة . . آمنة مطمئنة . . كنت أقطن مع زوجتي وكان يجاورنا سيد وقور ذو شخصية قوية

صارمة .. إلى جانب أخلاقه الرفيعة وتمسكه بالفضائل ويسير الصحابة والاسلاف الكرام ... فقد كان يتمثل بكلامهم وأفعالهم كثيرا ....وكان متزوجا بفتاة متوسطة الجمال والحال.. ولكنها كانت على جانب كبير من العناد . . وذات حظ عظيم من القسوة ... ولكن هاتين الخصلتين لم تكونا تبرزان وتظهران في معاملاتها مع الناس والجيران كثيرا .. فهي تتحلى إلى جانب ذلك كله بالسذاجة والسطحية . . تفهم الحياة كما هي . . بسيطة . . طبيعية .. بلاتعقيد ولارتوش.. وكانت حياتنا رتيبة ، الأيام راكدة الأحداث في قريتنا هادئة . . ولئن كان حقا لا جديد تحت الشمس . . فقد كان لاجديد فعلا في قريتنا . . . كل شيء يسير كالمعتاد حِراثة . . فزراعة .. فحصاد . . فشكر لله وحمد . . وأقبل علينا موسم الحج وكان هذا الموسم أول مناسبة نواجه فيها شيئا . . أوحدثا غير عادي . . . . أجل فلقد كان معظم أهل القرية متهيئين لأداء فريضة الحج . . لم يكن الموسم هو الغريب ولكن الغرابة كانت في كثرة الحجاج من قريتنا هذه السنة . . لقد كان الحجاج من قريتنا فيما سلف من السنوات يعدون على الاصابع . . قد يحج أربعة أشخاص . . أو خمسة . وربما عائلة أو عائلتان . . ولكن هذا الموسم كان كثير الحجاج فقد حج من قريتنا فقط سبع عائلات . . وتسعة أشخاص منفردين . . وقبل أن تسأل أحب أن أعلمك أنني لم أكن ممن توجهوا للحج .. فقد كنت « مخلّفاً » كما تقول العامة عندنا لقد كان موسما هادئا وممتعا في قريتنا الخضراء . . لولا أن

تخلله حادث مؤلمٌ لمْ يكن في حسبان أيٍّ منا . . . لا تتعجل فأنا في طريقي لأن أقص عليك القصّة كاملة . . . . . قال ذلك عندما لاحظ على وجهي علامات الاستفهام .. والاستغراب .. والاندهاش ثم أكمل حديثه فقال :

« من عادة النساء في قريتنا وخاصة (المخلفات) منهن أقامة ألعاب وسهرات خلال موسم الحج وهذه تقام بالتناوب في بيوتهن . . كل ليلة في بيت أحداهن . . وهذه الألعاب يسمينها (الجكر) بفتح الجيم والكاف ولا أدري ما أساس هذه التسمية ولا أصلها كل ما أعرفه أنها تطلق على تلك الرقصات والألعاب النسائية . . وتبدأ سهرات الجكر (منذ الليلة الثامنة أوالتاسعة من شهر ذي الحجة وتستمر حتى الليلة الرابعة عشره أو قبلها أو بعدها بقليل . . وهكذا في الوقت الموعود . . أي في الليلة التاسعة وهي ليلة الوقوف بعرفه كما اصطلح أهل القرية على تسميتها أقيمت أول حفلة ساهرة . . وكانت طبعا بسيطة بساطة القرويين وبأسلوبهم المرح الطبيعي . . دون رتوش ولا تعقيدات . . وانتهت أولى الليالي على أحسن ما يرام . . ثم أقبل المساء من جديد وأرخى الليل ستائره الفاحمة على الكون وأخذ السكون يلف القرية شيئا فشيئا . . وحان وقت السهرة . . . . سهرة النسوة . . وفرحهن . . ومرحهن . . . لقد تواعدن هذه المرة على . . اقامة السهرة في بيت جارنا . . كانت زوجته الشابة حديثة عهد بالولادة . . . أجل فقد أنجبت

له طفلة جميلة تتجلى الوداعة في محياها الطاهر ويبدو الصفاء على ملامح وجهها البرىء . . . واجتمع نساء القرية في بيت جارنا وصادف ذلك ميعاد سقايته أي اليوم المحدد له لسقاية مزرعته بماء العين . . . فتأخر تلك الليلة شيئا ما ثم . . هاهو الزوج . . قد عاد . . وكان لا يعلم شيئا عن السهرة الموعودة . . وعندما أقبل كان تعبا جداً . . ومرهقا . . بسبب صعوبة ري المزارع ليلا ولشدة ما عاناه في ذلك . . . وارتسمت ألف علامة استفهام على وجهه المجعّد من شدة الارهاق والتعب . . وبرزت ألف علامة استغراب ودهشة على محياه . . ثم شعر بالأحاسيس تتزاحم داخل نفسه . . وبالانفعالات تتصارع في في قلبه . . بشخصية الزوج الآمر الناهي المطاع دائما وفي جميع الحالات والذي لايثنيه عن رأيه أو أمره أو طلبه شيء مهما كان . . . شعر حينذاك شعور الزوج المشفق على زوجته التي لم يمض على ولادتها طويل عهد وهي لذلك أحوج ما تكون إلى الراحة والهدوء مما جعله يتميز غيضا وغضبا . . . وأخذ يردد في دخيلة نفسه : — (يا للحمقاء . . . أحاول أن أوفر لها أسباب الراحة والهدوء والسعادة وأجدها تدوس كل ذلك بقدميها وتضرب بكل تلك العناية عرض الحائط . . .) أنه الآن قادم من مزرعته . . بعد التعب والنصب الشديد . . وكل هذا الارهاق . . . أين يذهب . . . وبيته كما هو معروف ككل بيوت القرية . . . بيت قروي بسيط بطبيعة الحال . . وهؤلاء النسوة قد ملأنه . . وهن كثيرات . . زد على ذلك . . هو الآن

جائع . . عطشان ثم . . . ماهو السبب الذي منع زوجته من ابلاغه أو اشعاره بهذه السهرة التي تقام في بيته على الأقل ليأخذ الحيطة اللازمة لذلك . . . . كل تلك التساؤلات دارت بذهنه .. بينما أخذ دمه يغلي في عروقه . . . واشتد غضبه . . . واقترب رويدا . . . اقترب من البيت حتى وقف به السير أخيراً عند بابه وصيحات النسوة تترامى إلى أذنه وهن يلعبن ويرقصن ويمرحن . . . تتجاوب أصوات طبولهن وطيرانهن مع أصواتهن تجاوب الصدى مع الصوت . . وازداد حنقه وغضبه . . فنادى بأعلى صوته . . . وفجأة على صدى الصوت خفت كل شيء . . . وأنصت جميع من في البيت . . . وتوقفت النسوة مشدوهات عند صرخته الغليظه التي تنبيء عن ارهاقه الشديد . . وحنقه وبغضه لهن . . . خرجت زوجته إليه عند الباب . . .

— أنت . . ؟؟ . . ماهذا . . ؟؟؟ . . أكل هذا يجري في بيتي ولا أعلم عن شيء ؟ ؟ أما كان من الواجب اشعاري بكل شيء . . . ؟ ؟ ؟ ثم . . . .

— لقد . . لقد طلبن مني أن يسمرن عندي هذه الليلة عند الغروب ولم تكن قريباً لأشعرك بأي شيء . . . أجل فقد مرت احداهن علي قبل صلاة المغرب بدقائق وأخبرتني بذلك . . . و . . و

— أين عشائي . . . ؟ ؟ ؟ ولا تنسي أن . . . تحضري لي قليلا من الماء البارد . . فان حلقي يكاد يتشقق من شدة

العطش والجفاف . . . فيبدو أنه لا مناص الليلة من المبيت فوق بطحاء الوادي الباردة . . .

ــ عشاء . . . عشاؤك . . . في الواقع لم أتمكن من اعداده . . ألم . . ألم تتناول أي شيء ؟ ؟ ؟ . . ألا يمكنك تدبر الأمر . . . أرجوك . . . أعذرني حيث أنه لم تسنح لي أية فرصة أستطيع خلالها أن أعد لك ما تسد به الرمق . . . أما الماء . . فسأحـ . . . .

لم يتمالك الزوج المنهك الجائع أعصابه . . . صاح ثائرا... متهالكا من شدة التعب والجوع والعطش والارهاق . . . فقد بدت على ملامح وجهه سمات الغضب والحنق المجنون . . . وبدا وجهه متجهماً وكأنه وجه شيطان والشرر يتطاير من عينيه .... صرخ في وجهها . . . .

ــ طبعا أما الماء . . . فهاهو . . . أشرب ماء . . . وآكل ماء . . . وأفترش ماء . . . وألتحف بالماء أيضا . . الماء فقط هو غذائي وشرابي . . لا . . لا . . هذا كثير . . . هذا كثير . . انني لم أعد أحتمل كل ذلك ثم أخذ يصرخ موجها الخطاب إلى النسوة اللائي كن قد غصصن بأغنياتهن من شدة وهول صراخه . . . وهو يقول لزوجته . . .

ــ أخرجي هؤلاء النسوة . . انني مرهق . . . جائع . . تعب . . لا أحتمل . . . . لا أحتمل . . . لا أحتمل . . .

اتجهت إليه زوجته تلاطفه وتهدىء من حدة غضبه

وصراخه في شيء من التذلل والخضوع . . . .

ـ أرجوك . . أرجوك . . لاتكدر صفونا . . . وتعكر سهرتنا وفرحتنا . . أنها . . أنها ليلة فحسب . . وهن لن يسهرن عندي كل ليلة . . . و . . . بعد قليل يخرجن من عندي . . و . . و . . .

لم يدعها تكمل كلامها . . . صرخ في تهكم واستهزاء...

ـ بعد قليل . . . ؟ ؟ ؟ وهذا القليل . . متى سيكون أن شاء الله . . . . عند الفجر . . . ؟ ؟ ؟ ؟ لا . . لا . . أنا لا أحتمل . . لا أحتمل أكثر . . أكاد أتفجر . . أيتها الظالمة . . راقبي الله فيَّ . . وفي نفسك . . وطفلتك البريئة . . كوني..

واحتدم النقاش بين الزوجين المتشاجرين . . . وصاحت في وجهه . . ـ أكون . . . أكون ماذا . . ؟ ؟ ؟ أكون جارية عندك . . . أو . . أو خادمة . . وأكون حبيسة هذا المنزل . . وأنقطع عن الناس لا أزور ولا أزار . . تمنعني من السهر مع صديقاتي في القرية . . ألم يكفك أنك منيتنا بالذهاب لأداء الحج هذه السنة . . ثم ذهبت وعودك أدراج الرياح كسابقاتها ... ومع ذلك قبلناأ عذارك الواهية ومبرراتك التي لا أساس لها من الصحة ولا معنى لها . . . واحتملنا كل ذلك ورضينا بالبقاء....

كانت شخصية الزوج القوية التي جرحت الزوجة كبرياءها وتعاليها . . الزوج الذي تعود أن يأمر فقط فيطاع . . الذي لاتناقش أوامره وطلباته أيا كانت ومن أي شخص كان . . .

تلك الشخصية دفعته أن يصرخ بأعلى صوته . . . . . .

– أيتها النسوة ياعديمات الاحساس . . . أخرجن من بيتي . . . أليس لكن أزواج . . ؟ ؟ ؟ أليس رادع – ؟ ؟ ؟ ؟
أنا لا أريد أحداً في بيتي . . . . .

أخذت الزوجة تجيل النظر وتردد النظرات بين زوجها الذي وقف منتصبا عند الباب كأنه مارد جبار . . أشعث الشعر . . مغبرّ الوجه وبين ضيفاتها اللائي أخذن يتناسلن من البيت . . فرادي ومثني من باب آخر للبيت تباعا كأن على رؤسهن الطير . . . فرأت أن لا فائدة من الجدال واشتعلت في رأسها نيران العناد والتهبت جذوة الاعتزاز والكبرياء في مشاعرها فالتفتت إليه تتفحص في شخصه الماثل أمامها ترفع بصرها وترخيه من أعلى جسده إلى أسفله . . . نظرات كلها استهزاء واستهتار بصراخه وأوامره وعنجهيته . . وقالت بلهجة كلها تهكم وسخرية . . . . :

– إذا كان هذا ما تريد . . فها أنا أخرج أيضا إلى بيت أبي . . . وها هي ابنتك . . . أرضعها واعتن بها مادمت أحرص مني عليها وأكثر حبا لها . . . أن استطعت ومالت إلى ملاءة لها ولفت نفسها بها . . . وخرجت . . . . . ووقف الزوج مبهوتا لما سمع مبهورا بما رأى . . . ودخل . . . ها هى الطفلة المسكينة ذات البضعة والعشرين يوما ملقاة على بساط من الخوص تصرخ طرفاً شديداً مريرا . . وتفحس البساط برجليها

الطريتين فحساً . . . كأنها تستجدى والدتها . . بالرجوع . . .
وتستعطف والدها بالهدوء والوقار وتدارك الموقف . . . ولكن
رغم أن النسوة وقفن في طريق الزوجة وحاولن اقناعها بشتى
الوسائل وترجينها أن تنثني عن رأيها وتعود . . . ولو اكراما
لهذه الطفلة البريئة التي لاحول لها ولا قوة في هذا المرقف
العصيب . . . ولكن لافائدة فقد آخذ منها العناد كل مأخذ
وآلت على نفسها أن لا تعود . . كيف تعود إلى البيت وقد
تحملت كثيرا . . تحملت الوعود الكاذبة كذب السراب في
ظهيرة صيفية .. ثم هاهو يحرمها من حق من حقوقها . . . .
وكان كل ذلك يترامى إلى مسمعه . . . فزاد من تعنُّده
وتعنُّته .. وجعله أكثر تمسكا برأيه من ذي قبل .. . هو الآخر
. . . . وذهبت الزوجة إلى بيت والدها لاتلوى على شيء ...
غير آبهة ولا مبالية . . . ووسوست شياطين الأرض في خلده
وأخذ يتمتم في دخيلة نفسه . . . (أنا الرجل الآمر الناهي . .
وليست هي صاحبة الامر . . . ورغم كل ذلك تضرب بأوامري
عرض الحائط . . . وتهمل مطالبي وطلباتي . . . وتعاندني
أيضا ؟ ؟ ؟ ؟ . . انني أولى منها بالعناد والمكابرة . . وفرض
الأوامر . . . ولكن سأريها من منا بيده الامر . . .) . . .

وفي اللحظة ذاتها ترك الطفلة الصغيرة المسكينة على ماهي
عليه ملقاة على الأرض تفحسها برجليها الطريتين — وقد بح
صوتها من شدة الصراخ وتوجَّه . . مزبداً . . مرعداً . .

مستشيطا غضبا . . يتميز غيضا . . إلى منزل عمه . . . والد زوجته . . وما كان ببعيد عن بيته . . وأقبل على البيت يترامى إلى سمعه صوت نقاش محتدٍّ بين الأب وابنته . . . يسائلها عن الاشكال . . وعن أسباب الخلاف . . . وهي تردد في عناد وتعنت واصرار – أموت ولا أعود إليه . . . والله لو قطعتموني إرباً إرباً وألصقتموني بجسده ما رضخت لذلك ولا رضيت به . . . والأب يقف مشدوها يملأ كيانه الاستغراب والاندهاش . . ويحاول أن يتدارك الأمر ليثنيها عن رأيها . . فيبحث الأمر من جانب آخر . . وزاوية أكثر حساسية . . . لعله بتحريك عواطف الأمومة فيها يستطيع تدارك الأمر . . . يقول لها بنبرة مليئة بالاستعطاف والترجي ومحاولة ايقاظ العقل واستثارة العواطف . . . .

– ولكن . . . ولكن . . . ابنتك البريئة . . الطفلة الغريرة . . . ما ذنبها ؟ . . لماذا تركتها . . ؟ ؟ ؟ كيف استطاع قلبك أن يقسو إلى هذا الحد ؟ ؟ أليست لديك عاطفة . . . ؟ ؟ ؟ ألست من البشر . . . . ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

ويخرج . . . ليجيب صهره الذي كان ينادي بأعلى صوته . . . لقد عرفه من نبرات صوته .. خرج إليه متلهفا . . . ليعرف السبب الذي فجر هذه المشكلة .. وأثار هذه الزوبعة ... هاهو صهره أيضا يلقاه غاضبا ويقابله ساخطاً .. بلاسلام ولا كلام .. تتطاير الكلمات من بين شفتيه متهالكة .. وهو يلهث ... فقد جاء يجري مسرعا ... كأنه يريد اغتنام الوقت . . . وصرخ . .

– ياعم . . ابنتك طالق . . طالق . . . ثلاثا . . . اشهد لله أن نصيبي في الحياة معها انتهي . . . .

قال ذلك بحنق وغضب شديد . . ثم قفل راجعا إلى بيته لا يلوى على شيء وصوت الطفلة البائسة يشق سكون القرية . . ويمزق هدوء الموقف ووحشته . . يزداد وضوحاً وضخامة في مسامعه كلما اقترب . . . ووصل إلى البيت . . ونظر إلى طفلته البريئة . . نظرة الاب الشفق وبقى يتأمل الطهر والبراءة يرتسمان على وجهها الصغير . . . ثم أحس أخيراً بالحسرة والندم ... يخالطهما شيء من الالم . . . وشيء من الراحة النفسية . . . لأنه كان يحس في أعماق نفسه أنه انتقم كان يحس في أعماق نفسه أنه انتقم لنفسه ولعزنه وكرامته . . . كان يشعر أنه عاقب زوجته الجامحه . . العقاب الرادع . . . ولكن ما ذنب هذه الطفلة البريئة المسكينة . . . هل تكون هي كبش الفداء لهذا العراك الخبيث بين الزوجين ... ياله من موقف حرج . . أليم . . معقد . . . كيف ياترى ستصرف ؟ ؟ ؟ كيف يحل هذه المشكلة البغيضة . . ولكن . . لا . . . لن تكون فلذة كبده هي الضحية . . . سيطلب من قريباته وقريبات زوجته أن يقمن بدور الوساطة لديها ويحاولن اقناعها بقبول القيام بحضانة ابنتها والعناية بها . . ونفذ الزوج المكلوم ما عقد العزم عليه . . . ولكن مع الاسف الشديد باءت المحاولات بالفشل بدون أى جدوى أو فائدة . . . . كانت

كل المحاولات تذهب هباءً . . . وكل الرجاء يتبدد سدى . .
وحاول أهل الخير التماس المرضع لهذه الطفلة المتهالكة ولكن
هيهات . . وهيهات . . . لقد رفضت الطفلة وبعناد واصرار
أيضا كل ثدى قدم إليها أو عرض عليها . . . كانت كلما
وضع في فمها ثدي صرخت وولولت ورفعت عقيرتها
بالبكاء . . . كأنما أصابتها هي الاخرى عدوى العناد والكبرياء
. . . . ومضى يوم ويومان . . . وهي تذوى كبرعم انقطعت
عنه الشمس والماء والهواء . . . إلى أن ذبلت نهائيا . . . ولم يكن
من هذه النتيجة بدٌ ولامناص . . . أمٌ ترفض احتضان الطفلة
. . . . والطفلة ترفض كل ثدى سوى ثدى هذه الأم الرافضة
. . . حتى أسدل الستار . . . ورفع منديله إلى جبهته بيد
مرتعشة . . . يمسح بضع قطرات من العرق . . . كأن الصراع
الذي تخلل أحداث القصة وحوادثها قد أرهق أعصابه . . . ثم
رفع بصره مليا إلى السماء . . . وقال بعد أن زفر زفرة عميقة
مليئة بالأسى والحزن :

. . (أيه . . . . سبحان الله ما أعجب هذه الدنيا . . حقاً
لقد صدق من قال . . عش كثيراً تر كثيراً . . . ولكن رغم
أنني عايشت وعاصرت أحداثا ومعانيات كثيرة ومتنوعة . . .
لكنني مامرت عليّ أغرب وأعجب من هذه القصة . . . قصة
انتهى كل أبطالها بسبب العناد . . . .

موت على الماء

عبد العزيز مشري

النجمة تنام في قميص من وهج وبريق . .
تقطر ضوءاً فضيا يعوم في فضاءٍ رقيق ؛
لم يكن الشايب قد توضأ للصبح . . صنبور الحنفية ينقط . .
يقرع إبريق الوضوء المعدني المتعرج من أثرالصدمات
. . فالأولاد يتخذون منه كرة حين غفلة الشايب . . يلعبون به
. . يدحرجونه بين أقدامهم الحافية الصغيرة في تراب الحوش .

* * *

غنت عصافير اللوز . . . صاحت ديكة الجيران : تسابق تذاكير الشايب ، وخيوط الفجر . . لحيةالشايب . . شعيرات الكفن تقطر بالوضوء . . برد الصباح يتنفس (عقيقا) في ركبتية وغضاريف ظهره ذي الزاويـــــة المنحنيـــة . يتدثر بجبته الصوفية « المحمـّرة » ثم يبسط سجادته الخوصية . . . يهتدي برسم مئذنتها . . حين يكبر يرى الرسم مقلوبا

فيعود : يعدل وضعها ويكبر . . يسجد ، تلتصق بالجبين المعلّم . . يبسطها بيديه المرتعشتين وجــلا . . . ويرفــع ... ويسجد وتلتصق ثم يبطسها ويسجد .... يسلم على الملائكة . . يطوي سجادته بتهذيب ويعلقها على وتد الحائط الطيني . كانت تسقط . . . ثم يفردها . . . يطويها ويعلقهــــــا .

* * *

دجاجتنا تشقشق ملء الدار . . . تصفق بجناحيهــــا . . ثم تنتف ريشها وتبيض على كيس الذرة المركون في جــدار بيتنا الطيني . . حين اقترب أخي الصغير ليحمي بيضتها السوداء الكبيرة من قطٍ وحشي . . . نفرت في وجهه . . . فقأت عينه وهربت من القط الذي يلتهم كل ما تبيض . . . ؛
إذا سألنا أخي الأعور قال :
« ذباب . .
ذباب ذبّني وذبيتّه) .

* * *

على ساحات قريتنا النائمــة في ظل براءتها الفقيرة . . . تسيل الحسرات من عيون المجاهدين . . يختبئون خلف دعواتهم . . . يوكلون اللقمة على (الله) .
في زفاف ابن عمي المجدور الوجه . . دق طبل الفرح . . زغــردت النساء الحافيــات . . . أتشحن بالخمــــار . . كتمن الأنفاس ومضين إلى حيث بيت العريس الابدي ! ! !

وفي زفافه . . تجمع الأولاد . . رقص الرجال بـ (المشاعيب)
. . كان شيخ القرية يحذر عليهم حمل النار . . فالرقص بها
يخيف براءآتهم . عند انعطاف الرقصة الدائرية . . رقص
الرجال بـ (المشاعيب) . . وكان الشايب يقف حاملا سجادته
الخوص ويرقص بها . . يهدد بها الفضاء . . ويلاطم بقفزاته
سحابات الغبار المنبعث من تحت أقدام الراقصين . . والصوت
واحد خلف الشاعر ينجر . . يتوزع أصداءا . . تتقاذفها الحناجر
« دقدق الراعد . . وهلّ الناوي » .

أنطفأ رسم الزفاف بعد ثلاث . . عادت الأقدام المتعبة
تحت الخطو . . تجيء وتروح ؛ وجلود البقر تحمل أعباء
العيال : رزقا . . حياة . . وتعبا . لما تمر أيام الجفاف يقبع
المجاهدون في دفء ما أكتنزوه . . يقطر عليهم . . يقطر
(ويكون فقر من ماء ولا فقر من ظمأ) . تتحاشد الأوعية الخالية
حول رماد الغمام . . ينقشون أقدامهم من أشواك الطلح القاسية .

* * *

الشايب يخلل لحيته . . يراها نسيجا أبيضا من لباس الموت
. . يستدعى أولاده . . يقرأ عليهم سورة النور . . و . . يرسم
لهم مملكته التي تورثها عن أمه حين نهب الطاغون تحت بطونهم
ماءها . . يقيس حدود أقسامهم بسجادته الخوص ،والأولاد
تفيض وجوههم زرقة . . تفيض عيونهم أسىً . . وكأن الرمال
التي لا تنبت الزرع تفور بالدم . . يعرفونها . . لكن الماء يغطي

الجذور . . تذبل الأوراق .

* * *

لم تخرس وصيه الشايب .. غير أن أولاداً له تيبس في ايديهم أرغفة « السّيال » ؛ البعض على صدورهم تسيل زركشة الماء الذي غطى أفنياتهم . . آخرون . . أخرون . . وآخرون يذيبون شوقا . . يحملون الزهر على رؤسهم . . يطوفون على (الجرن) الشاحبة .

* * *

لم تخرس وصية الشايب . . ظلت معلقة بسجادته . . تنطق العدل . . تتنبأ بأساطير ضوء يكشف الغيمة الداكنة .

* * *

في شتاء الايام تهب الرياح بساحة الحوش تلعب بالابريق المعدني المتعرج . . تقذف به في الأحلام العقيمة لينتظر تباشير فجر قادم آت من مسافات البعد . . يفتح فاه للسحابة القادمة من عقبات (تهامه) . . لتمطر ماء الوضوء .. تسح عن أعشاب البراءة سحنة الغربة الدائمة .

* * *

كان الأولاد يحملون زهورا . . يطوفون بها على (الجرن) الفقيرة . . يفترشون أحزان غربتهم . . ويموتون في أنتظار الأفراح الوهمية الميتة .

بدون عنوان

صالح السليمان الخضيري

عاد عثمان المحاضر بجامعة نيو جرسي إلى قريته . . عشر سنوات قضاها في الغربة كانت كلها حنينا . . إلى الأرض والناس والذباب والنملة القارضة التي تقرض حتى الخشب - وبيوت الطين والشوارع الضيقة .

زوجته الأسبانية القصيرة ذات شعر فضي وأرداف شرقية ممتلئة . . طفله الذي لم يبلغ الخامسة من عمره بعد ، تقاطيعه شرقية حلوه وشعره فضي وبشرته ناصعة البياض .

قفز عثمان على الأرض المشققة في بشر وحيوية . يبدو أن الطفل لم يشارك أباه فرحته كان يسير منقبض النفس متجهما يحاذر أن تسقط إحدى قدميه الدقيقتين في الشقوق أو يتسخ حذاؤه بالتراب غير المستقر . ما أن استقر به المقام في القاعة

وقرصته حشرة صغيرة لم يتبينها صرخ حتّى أفصح لوالده عن رغبته . .

بابا . . . أريد أن نعود إلى بلدنا . . ؟ ؟ انطلقت قهقهة عالية حبسها في صدره طيلة سبع سنوات . . تعجب فيما بعد أنه لم ينسها وانها انطلقت في بيئتها كأنما باستدعائها ورغما عن ارادته . . وقال بالعربية في لهجتة السعودية :

هذا بلدك ياولدي .

لم يفهم الولد الالفاظ الغريبة التي رطن بها أبوه ظن أن اباه لم يع ما يريده . اعاد طرح القضية وهو يضغط في حزم على مخارج الالفاظ أريد . . . أن . . . أعود . . . إلى . . . بلدنا تعددت كلماته هذه المره في سماء القاعه التي انفجرت بقهقهات بركانية مزلزلة والأب يشرح للمستقبلين ماقاله الأبن في عبارات مداعبه .

نهض بعض المستقبلين واقتربوا من البساط الذي يجلس عليه الطفل . جلسوا قبالته على البساط المفروش ذي التشكيلات الرمادية والحمراء اخذوا يداعبونه بنظرات متسائبه واخرى مجاملة تتعرض لأصله ونسبه وبطولات جده بلكنة يحاولون جهدهم أن تخرج كلكنة الخواجه حتّى يفهمها الطفل . نظر الطفل إليهم في فزع والمعارك التي تدور في الاحراش على صفحة تليفزيون الولاية تتزاحم أمام ناظرية وكيف يذبح

الوطنيون الأطفال ويلتفون حول الأوربيين المقيدين بالحبال راقصين . .

تحسس أحدهم فردة حذائه وكأنه يتذوق قطعة من السكر قفز الولد من على البساط واحتضن في حجر أبيه . .

هيا . . . هيا يا أبي

إلى أين يابني

نذهب . . . نذهب

قال الأب وهو يوجه ابتسامته إلى المستقبلين :

نذهب إلى أين

كأنما فهم الطفل عبارته هذه المره . . . قال في رجاء

. . . إلى بلدنا . ؟

رفعه الوالد واجلسه على ركبته . قال وهو يحاول أن يقرب احساسه من ذهنه .

هذه بلدنا

لا . . . لا . . . أريد أن نذهب إلى بيتنا .

الم أقل لك أن بيت جدك هذا هو بيتنا

. . . لا . . . أنه ليس بيتنا . . . أنه بيت قذر كان الطفل في غاية التذمر . حمله أبوه واتجه به إلى الحجرة التي تجمع فيها الحريم والنسوه مازلن يستطعمن زوجته كما يستطعمن طبقاً من الطعام .

وجه الحديث إلى زوجتة بالأنجليزية فطمأنته بالعربية المكسرة ورجته أن يهتم بضيوفه وأن لا يحمل همّاً والنسوةُ ينظرن إليها في انبهار كأنهن مازلن يتذوقنها بالسنتهن ، عاد ادراجه .

وعندما سأله صديقه إبراهيم الذي أصبح دكتوراً في الجامعة .

ألم تكن تحدث أبنك عن البلد ياعثمان . ؟

لم أفعل إلا في العام الماضي وبعبارات مناسبة لسنه .

أنها غلطتك إذاً ياعثمان .

نعم اعترف . . .

سمع الطفل يبكي فتغافل عنه وأكمل حديثه بصوت أكثر أرتفاعا .

كنت مشغولا بدراستي ورزقي تنبهت أخيرا إلى أن لم أعلمه حرفا واحدا من حروف العربية . .

اشتد بكاء الطفل فأصر على تغطيتة بزعيقة .

لولا أن أمه اعتمدت على مجهوداتها الذاتية ما استطاعت أن تجلس الآن بين النساء بدون ترجمان . .

لم يجد مفرا من النهوض . لم يضحك أحد، حاول أن يسترضي الطفل بشتى الطرق ، اراد أن يأخذه معه فآبى .. رجته زوجته

ألا يحمل همّاً وأن يعود إلى ضيوفه مطمئنا ، وتحول البكاء إلى صراخ وتشيج متواصلين .

حاولت جدته أن تأخذه معها إلى حجرة الفرن فأرتمى في في حضن أمه فزعا . أصبح واضحا أن عثمان يعاني أزمة نفسية حاده . غادر القاعة مرة أخرى وتوجه إلى الحجرة بخطوات سريعة رفع الولد من كتفية بذراعيه وقد تحول إلى كتلة نارية متوهجة من الغضب . .

اخرس . . . اخرس . ؟

أوقفه على الأرض صارخا .

قلت لك هذه بلدك . . . أفهمت ؟ . . .

أخذ الولد يردد في عناد . ؟

لا . . . لا . . . لا . . . .

صفعه على وجهه

بلدك . . . .

التصق بالجدار وهو مازال يجأر .

لا . . . لا . . . لا . . .

تقدم نحوه واخذ يضربه على يديه وجنبي ذقنه بأطراف أصابعه ضربا متواصلا .

بلدك . . . بلدك . . . بلدك . . . بلدك

الطفل يرتعش ويزداد صراخا والتصاقا بالحائط والأب يردد بعناد اشبه بعناد أبنه .

اليست بلدك . .

قل اليست بلدك . .

قل اليست بلدك . .

اراد الطفل أن يخلص من العذاب فغير عبارته ضارعا . .

نعم . نعم . نعم .

كان الأب قد تحول إلى ثور هائج فلم يفهم ما يعنيه الطفل . .

نعم . . ليست بلدك . . تقول نعم ياكلب . .

ليست بلدك . ؟ ليست بلدك .

فكانت اصابعه الغليظة تهوى مع كل كلمه بطريقة إيقاعية على يديه فكلما رفعهما ليحمي وجهه وجنبي ذقنه كلما اضلتا هما قال الولد وهو يرتعش ويستغيث .

لا أعرف ماذا أقول . . . لا أعرف . .

جاءت الجدة من حجرة الفرن على صراخ ابنها وجدت الام واقفه خلف الأب دون أن تجرؤ على الحركة . أبعدتها بذراعها ورفعت أبنها بعيدا عن حفيدها . حملت الطفل بين ذراعيها وعثمان ابن قلبها الذي لم يعرف قلبه الرحمه طول عمره أزداد الطفل ارتعابا وهو يلقي بنفسه تجاه أمه . حملته أمه وفرت به إلى الحجرة الثانية والأب يرغي ويزيد .

ابن الكلب . . ابن الاسبانية . . يضن أن هناك بلده . . .

هذه بلدك يا ابن الكلب بطينها وناموسها وبقرها

بلدك . . . بلدك . . . . بلدك . . . .

الزرقاء تخدع نظرها

محمد المنصور الشقحاء

الضباب يلف المدينة . وموجة البرد المفاجئة خلقت شيئا من الهلع في القلوب فهجرت الأقدام الشوارع وانزوى كل واحد في داره أمام المدفأة يتابع في سأم وملل برامج التلفزيون منفسا عن ما في أعماقه من غضب بالصراخ في وجه أطفاله . . ومجالسيه كأن لا شيء يعنيه من كل ما حوله سوى الهدوء . الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساء وأنين ماكينة خلط الأسمنت المزروعة في الشارع يصم الآذان حيث حدّد العمال ــ المكلفون بتجديد سور المقبرة المتهدّم ــ انهاء المهمة المناطين بها هذه الليلة بعد أن طال العمل وتجازو الوقت المحدد ه .

وقف ابراهيم امام الباب الخارجي يتأمل ماحوله محاولا تحديد شيء من خلال أفكاره المشتتة ليقوم بتنفيذه . أنهم يسرقون من عينه النوم . . أنهم قتلة مرتزقة . . هناك جهات

مأجورة تقدم لهم كل شيء . لقد فوجيء بأن لديهم معدات وأشياء فوق كل تصور وخيال . . وهو خالي الوفاض . .

ـ لقد صرفت الشيك

ـ ولماذا لم تقل ذلك عندما صرفته ؟ . .

ـ قريبا صرفته

وتذكّر كلّ الأحداث . . كان الشريط يمر في هدوء معلنا عن نفسه لم يكن يحتاج إلى عنوان .

كان ذلك منذ مليون عام عندما دعاه مديره في الدائرة وصرخ فيه . .

ـ لماذا . . ساعدت محمود

ـ لأنه انسان يستحق ذلك .

ـ وهل أخذت الضمانات . . ؟

كانت مفاجأة له لقد عرض كل شيء . ومرت الأزمة بسلام حيث أخذ يضحك من سذاجة الآخرين . من لا هم لهم سوى اللهو . . وتعقب أعمال الآخرين بالنقد والذم .

وحدثت حادثة أخرى كان منطلقها وفاة موظف صغير ذي عائلة كبيرة . . لقي في طيبة مَن حوله فرصة .. شعر فيها أنه سيد الموقف .

أخذ إبراهيم يتأمل . .

والعمال الصوماليون يقومون بعملهم في رتابة وصمت بخلاف بقية العمال الآخرين الذين لا ينشطون في تأدية أعمالهم إلا من خلال الغناء أو الصراخ على بعض للحث على الاسراع . .

انهم صورة لذلك المسكين الذي وقع فوقه ذات صباح دولابان من دواليب الكتب وارتطم رأسه بالأسفلت . وعندما حمل رفاقه عنه الدواليب نهض مغمضا عينيه يمسك برأسه وهو صامت لم يتفوه بكلمة . . ولم يقم بلعن زملائه في العمل حيث أهملوا أصول السلامة وكاد يذهب ضحية الموقف .

شعر ابراهيم أنه في حاجة إلى أن يستنشق الهواء بعيدا عن نواح الماكينة الملعونة . فاتجه إلى سيارته بعيدا يملؤه حزن غريب كان يردد بين لحظة أخرى . .

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . لا حول ولا قوة إلا بالله .

انهم يملئونه غضبا ويشنقونه حزنا بملاحظاتهم . . ، وهواجسهم حول كل خطوة يقدم عليها .. إنه مسكين في نظر الجميع . إن القرف من هذه الصفة يجعله يلعن كل شيء حوله . ويدعوه إلى متابعة مؤشر السرعة . . وهو يتجاوز . . المائة . . والمائة والعشرين . . والأربعين ليصل مرحلة الخطر . . وتأخذ السيارة في الاهتزاز إذ أن فرصة السيطرة عليها وصلت إلى

نقطة الصفر . . والطريق الأسفلتي الأسود يتلوي أمامه كأفعى خرجت لتوها من جحرها . . تبحث عن فريسة لتشبع نهمها . . وأنوار بعيدة . . تحاول اضاءة الطريق الطويل معلنة أنه يوجد حياة على امتداد البصر . . حيث يكون القسم الآخر من الكون فهناك موسيقى الجاز والرقصات المتنوعة ذات الايقاع الافريقي والحلي المصنوعة من الأصداف . . والخرز الملوّن المصنّع من النايلون والأخشاب . . أشياء كثيرة كانت أمامه . .

إنّها تقف على الحافة التي لم يبق على تجاوزها سوى أمتار في حياتنا السعادة الحقيقية التي ينشدها كل انسان في هذا الكون إن الانسان يمكنه أن يخدم نفسه في كل خطوة يخطوها . . ولكن هناك خطوات توصل إلى السعادة . .

وسرعان ما وجد ابراهيم شيئا من ذاته الممزقة . . حيث عجز منذ زمن بعيد سبر غورها وأخذ يرسم الأسئلة التي يبحث لها عن جواب . .

ولمح مقهى صغيراً على جانب الطريق . . فأخذ يهدّىء من سرعة السيارة واقترب من باب المقهى حيث أوقف السيارة على بعد خطوات منه وولج المقهى الذي لم يكن به أحد وأخذ يتلفت حوله محاولا بعث الدفء في أطرافه المثلجة .

— أمرك يا عمي . .

وقفز من مكانه كمن لدغته عقرب وأخذ يبحث عن مصدر الصوت ووجده . . كان مختبئا بين كوم من البطانيات والأغطية .

ـ أريد براد شاي . . وتعميرة . .

مر الوقت ثقيلا وهو يحاول الخروج من الأسئلة التي أخذت تتوارد في خاطره بنتيجة . .

ـ انهم يقتلون العصافير . . كل يوم . .

ـ أين . . ؟

ـ في الناحية الشمالية من الوادي . .

ـ والمسئولون . .

ـ إنه مكان بعيد عن الأنظار لا يعرفه غير أهل الديره . .

ـ ما فيه عقّال فيكم . .

ـ فيه . .

ـ وماذا يعملون . . ؟

ـ يشاركون في القتل بكل لذة . . انهم يمتدحون لحم العصافير المشوية . . على نار تلتهم أغصان الأشجار التي يجب أن نحافظ عليها .

وضحك . . لقد عرف كلّ شيء عن ما يقلقه ودفعه إلى الخروج في هذه الساعة المتأخرة من الليل من داره ليبحث لقلقه عن سبب حتى يهدأ . .

مدّ يده لصاحب المقهى بالأجرة شاكرا إيّاه على ماقدمه من خدمة . وانطلق عائداً إلى المدينة . . التي استقبلته أنوارها كعروس يزفّ إلى عريسها . لكن عادت الهواجس والأحاسيس التي كبتت إنه ذو شخصية منفصمة لا يعرف كنهها تقبع في أعماقه ويخاف أن يتعرف عليها . . إلى الطفو . . من جديد . . ومع ذلك استمر في الدخول . . ونقصر المسافة بينه وبين الدار .

السر الدفين

سحر عبد الرحمن القطب

فزع فجأة من نومه العميق في النصف الاخير من الليل بعد احلام مزعجه كأنها كابوس دار في خلده وسيطر على اعصابه وقواه إلى أن سمع صراخها واسترحامها فأزداد تيقظا وارهف السمع فاذا بها تتمتم بكلمات مرتجفه متقطعة النبرات تقول : ابعد عن طريقي ارجوك ياسعيد لا تفضح امري أستر عليّ أتوسل إليك لاتهدم حياتي لا لا . . . لم يع وجود زوجته بجانبه فظن انها خارج الغرفة تتوسل لمن يهددها وتسترحمه فخرج كالسهم من الغرفة إلى البهو لعله يضبطها مع هذا الغريب الذي تسترحمه لكنه عاد إليها وهو أكثر وعيا والتفت نحو السرير فوجد زوجته تغطّ في نومٍ عميق فأقترب منها ليتأكد من صحة نومها وحدق في عينيها المغمضتين لعله يجد مبراراً لما سمعه ولكن دون جدوى .

آه لابد أنه يحلم أ، خذ يكذّب ما سمعه ويحاول أن يتذكر بعضاً من أحلامه المزعجه ولكنه سرعان ما يعود إلى ما سمعه من زوجته ويتوقف عند ذلك الاسم الذي ردّدته في استرحامها أنها تحلم أيحق له أن يحاسبها على احلامها ؟ . . .

إن الاحلام تترجم واقع الانسان أتكون هناك علاقة ما بين هذا الذي يدعي سعيد وبين زوجته ؟ ؟ . . أخذت الأرض تميد تحت قدميه وهو فاغرٌ فاه . اكابوسٌ هذا أم أن أذنيه خدعتاه ؟ . لعله واهم . .

اخذ يثبت وينفي ما سمعه ، ايوقظها ليعلم ويستقصى حقيقة المدعو (سعيد) حتّى لو يضطر إلى ضربها وتعذيبها لكي تعترف له ما علاقتها به ؟ لولا أن قلبها فاض بحبه وارتكبت إثما معه جعلها فريسة يهددها ليصل إلى مأربه لما حملت به ونطقت باسمه ، أخذت الافكار والهواجس تكبر وتتضخم وبدأت الشكوك تأخذ مكانها بدون اذن ولا وعي ، فما يلبث أن يعي لفئه حتّى يلعن الشيطان ويلوم نفسه كيف تسمح للشكوك أن تجد طريقاً إليها ، انها زوجته منذ ست سنوات لم يتذكر أنها أخطأت في حقه طوال هذه السنوات ، أمجرد كلمات تلفظت بها وهي نائمة تستحق هذا الشك ؟ فالنائم مرفوع عنه القلم ولا بد أنها أضغاث أحلام .

نعم ، انها لا تُعدُ من الجميلات ولكن حسن معاملتها وعشرتها تجعله يفضّل العيش معها من أن يعيش مع زوجة متعبة وذات

حسن وجمال ، فخصالها غطت على دمامتها انها لا تفكر يوما أن تسأله إلى اين أنت ذاهب ؟ ولا من أين انت آت ، انها تاركة له الحرية وكأنه رجل اعزب يسهر متى شاء ويعود متى شاء ، تعمل وتكرس حياتها لخدمته والسهر على راحته وتهيء له السعادة في المنزل فبالرغم من وجود خدم في بيته ، إلا أنها تستيقظ مع الفجر لتجهز له كل ما يلزمه ثم توقظه وتذهب لتعد القهوة ، فما ان يحلق ويجهز نفسه حتى يجد قهوته وفطاره وتجلس معه لتلبية طلباته وتسير معه إلى باب المنزل لتودعه وتعود لتستقبله بكل بشاشة وترحيب ساعة رجوعه . . .

أبعد هذا كله يطعنها بالشك القاتل ؟ أخذ يتلمس لها الأعذار لو أنها أقبلت على مثل هذه الفاحشة فهو بنفسه الذي دفعها لذلك نعم أنه موغل في حريته ومقصر عليها في حقوقها الزوجية ، وإن السهر الدائم قد أخذه كثيرا عنها ولم يلتفت إليها ولم يفتح لها قلبه مرة ويجلس معها جلسة زوج لزوجته ولم يسأل عن حالها ويشعرها يوما أنه مهتم بها . . . فما يلبث أن يلتقط أنفاسه حتى يصرخ شيءٌ في أعماقه مزجراً .. لا .. لاتحاول أن تجد لها مبرراً إنها خائنة ، خائنة . . تمثل صورة القطة المستكينة العاقلة التي ليس لها ولا عليها ، الآن عرفت سر عدم اهتمامها بتغيبي عن المنزل والسهر خارجة لتأخذ راحتها مع المدعو سعيد ، اني اوفر لها اسباب الراحة ولم اقصر يوما في طلباتها ، الخدم من حولها ، والمنزل كالقصر ترتع وترغد فيه

علاوة على ذلك فهي زوجتي ملكي الخاص ليس لها الحق في أي تصرف خارج نطاق البيت وإلا كان حسابها عسيرا .

اخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ويدخن بعصبية وبحدق تارة بالجسد المسجى على السرير دون حراك اللهم إلا من تنفسها الخافت وصعود صدرها وهبوطه ، وضع يده على رأسه الذي شعر أنه كاد ينفجر من كثرة ما شحن بأفكار سيئة دون سابق انذار وجوانحه مضطربة لعله يهتدي لطريقة يضبطها وهي متلبسة بالخيانة ولم تعد قدماه تحملانه عاد إلى السرير خائر القوى فاغر الفاه زائغ البصر كالتائه في الصحراء دون قمر ولا ماء .. شقشق نور الفجر وتقلبت الزوجة وبدأت تنفض كسل النوم عن كاهلها وتصحو كعادتها مبكرة لتصلي وتعدُّ لزوجها لوازمه وفطاره كالعادة ، فما أن شعر باستيقاظها حتى أغمض عينيه مصطنعا النوم ، فما ان انتهت من الاعداد حتى ايقظته فنهض متكاسلا يجر قدميه متعبا من اثر مالاقاه في ليلة البارحة ، لكنه تصنَّع النشاط لئلا تشعر أنه يعاني من شيء أو تحاول أن تقرأ شيئا ما في عينيه ، لكنها لاحظت عليه العياء واحمرارا في عينيه . سألته لتطمئن على صحته فاجابها من أن لا شيء يعانيه سوى قليل من الارهاق ، حاولت التخفيف عنه كعادتها واخذت تقرِّب له الاصناف المغذية وهي تقول أكالك هذه الأيام لا يعجبني يا أحمد فارجوك أن تفطر جيداً لتستطيع

أن تقوم بمهام عملك ، وما أن فرغ حتى سارت معه إلى الباب لتودعه ، خرج مهموماً إلى شركته ولم يدر ماذا يفعل ؟ ؟

ايخبرها بماسمعهمنها ام أنه يترصد لها لتظهر على حقيقتها ؟

ساوره الشك من جديد ، فما اوشكت الساعة على الحادية عشرة حتى شعر وكأن شيئا يثور ويغلي في داخله وسوّلت له نفسه ان يعود فجأة إلى المنزل لعلّه يجد مبررا لما سمعه فهي لم تتعود بل وتتوقع أن يعود بمثل هذه الساعة طوال السنوات الست التي قضتها معه ، ركب سيارته وعاد مسرعاً ، لم يكن ينظر إلى شيء بالذات إنما الاشياء من حوله تمر به . اما ذهنه فكان يزخر بأحاسيس شتّى . ألم وتوجّع وأسى ومرارة الشك بدأت تسري في كيانه واحس بعجلة القيادة تجنح به إلى اليسار وسمع نفير السيارات من خلفه فارتد من عالمه المغلق المفزع إلى واقعه وتكالب على عجلة القيادة بيدين متشنّجتين إلى أن وصل منزله فهرول من السيارة مسرعا دون تريث أو تفكير واندفع يدير المفتاح وبكل حذر دخل المنزل واتجهت نظراته نحو التلفون لعله يضبطها وهي تتغزل مع هذا الذي اسمه سعيد أو أنها تعده بتلبية طلباته حتى لا يفشو سرها ، لكن ظنه خاب حين لم يجدها بجواره فاندفع مسرعا لاهثا إلى غرفة النوم فوجدها مغلقة فتخيّلها ومن تحبه بداخلها ففتح الباب باندفاع وعصبية فوجد زوجته جالسة على حافة السرير تبكين وعيناها محمرتان كالجمر فنهرها قائلا على من تبكين ؟ ولم هذه الدموع المنهمرة ؟

أمن أجل هذا الذي أسمه (سعيد) ؟ فما كادت تسمع اسم سعيد تخرج من بين شفتيه حتى شهقت وانكفأت على يديه تقبلهما وركعت عند قدميه تستسمحه وتقول ، هل اخبرك ؟ هلى افشى سري؟ ياله من خدّاع خدع والدتي والآن عاد ليهدم لي بيتي فقال لها والمرارة تعتصر قلبه والنار تتأجج في صدره بكل مالديك ولا تحاولي أن تخفي عليّ شيئا مما في حياتك .

فردت قائلة لك الحق أن تغضب ، أنا المخطئة لأني أخفيت عنك عندما طلبت يدي وطوال هذه السنين ، لا لشيء ، وإنما خوفا من أن تحتقرني ، ولكن الان ساعترف لك بكل شيء طالما هو أخبرك وافشي السر الذي حسبته أنه دفن مع صاحبته ، ولكن هيهات كيف يكون ذلك وأنا وهو مازلنا على قيد الحياة . فتابعت اعترافها قائلة هذا الرجل الذي اسمه سعيد هو أبي نعم أبي الحقيقي ، وأنا ابنته الغير شرعية لقد خدع والدتي واحتال عليها وضغط بيده على الجرح الذي باعماقها حين علم منها أن زوجها الثري عقيم وادرك بطريقته الخاصة مدى شوقها وشوق زوجها للاطفال ولا تستطيع أن تفترق عن زوجها بسببهم ، فاستبد به شيطانه ليغريها بالذرية الغير شرعية خاصة وأن زوجها لا يدري شيئا عن عقمه فقد أخفي عنه طبيبه الخاص خوفا عليه من الصدمة كي لا تودي بحياته ، فخدرها بمعسول كلامه مقسما لها أن لا يفشى السر وأنه يريد السعادة لها ولزوجها الذي يتوق حنيناً لطفل يملأ عليه

وعلى زوجته الحبيبة البيت فاستسلمت لوسواسه وحملت بي ، وفرحة زوجها المسكين لا توصف فازدادت الفرحة بقدومي وحمد الله على أن رزقه الذرية ولم يفرق بنتا أم ولد . . ومن هنا بدأ ينفذ الخطط الدنيئة ليبتز المال من والدتي مهدداً بأنه سيكشف امرها ويأخذني من بين احضانها واحضان زوجها العقيم وما يترتب عن ذلك من فضيحة لا تغفر أمام زوجها وجميع معارفها ، وبناء على تهديداته رضخت لأمره ملبية جميع طلباته .

جاءها يوما مهدداً مزجرا يريد مبلغا كبيرا من المال ويريدها ان تتنازل له عن (الفيلا) التي اهداها أياها زوجها بمناسبة ولادتها ، وإلا أفرغ كل ما في جعبته من اسرار وفضائح فما كان لها إلا أن تسلمه جميع ما تملك من مال ومصاغ وتسترحمه إلا يعود ثانية لمطالبتها حيث أنها لم تعد تملك شيئا أما تنازلها عن الفيلا فوعدته وعداً صادقا أن تتنازل له عنها ريثما يتم الافراغ باسمها حيث أنها لم تزل باسم زوجها وطلبت أن يمهلهـــا اسبوعين على الأقل ، مضت المـــدة وتوقعت عودته ليأخذ مطلوبه وتلتها الشهور والسنوات ولم ترَوجهه ولم تسمع شيئاً من اخباره فحمدت الله على أنه ابعد شبحه المخيف عن هذا المنزل ، حتى ذلك اليوم الكئيب ، وقبيل أن تلفظ انفاسها الاخيرة كانت تبكي بدموع التوبة وهي تقبل يدى زوجها وتبللهما بدموع الندم طالبة عفوه وترجاه أن يسامحها

فقد أخطأت في حقه من أجل اسعاده ، كررت كلمة : اغفر لي خطيئتي ولا تسألني ما هي ، سامحها على كل صغيرة وكبيرة وهو يخفف عنها ويدعو لها بالشفاء ، خرج من الغرفة متأثراً لمنظرها المؤلم فاشارت إليّ بالاقتراب وضمتني إلى صدرها وهي تقول بصوت متقطع النبرات لا يكاد يُسمع سامحيني يا ابنتي ربيتك طيلة هذه السنوات الخمس عشرة وأنا اعيش في دوّامة من الخوف والعذاب ، وعذاب الضمير لا يرحم ثم أخرجت ظرفاً صغيراً مغلقاً واعطتني اياه قائلة اياك أن تفتحيه إلا بعد موتي ووصيتي إليك الاّ تفتحيه أمام أحد وأن لاتخبري أحداً عما كتب فيه ، أنا اعلم مدى الألم الذي ستواجهينه بعد أن تعرفي ما بداخله ، فارجو أن تسامحيني على خطيئتي بحقك ، أخذت اقبلها وأنا اقول لها أنت بخير يا احب ما لدي في الدنيا ، فانا سامحتك على كل شيء تعتقدين انك مخطئة به احسست ببرودة الموت تتسرب إلى وجهها ولفظت انفاسها هادئة بعد ان سمعت ما يريح ضميرها وبعد أن تمّت مراسم الدفن والعزاء ، أغلقتُ باب الغرفة واصبحت وحيدةً كما أوصتني فضضت الظرف وأخرجت الورقة وبيد مرتجفه وعينان زائغتان وقلب خافق قرأت ما كتب فيها وبخط والدتي ، انها تعترف بما ارتكبته من اثم في سبيل اسعاد زوجها حتى لو كان على حساب ضميرها وتعذيبها وذكرت اسم ابي الحقيقي واوضحت انها لم تعد تراه منذ أن وعدته بالتنازل عن (الفيلا)

وارفقت هذا الاعتراف بصورة صغيرة لوالدي الحقيقي ، تألـّمت كثيرا وطلبت لها المغفرة لأنها كانت ضحية حبها لزوجها وفريسة لهذا المدعو والدي .

مسحت دموعها المنهمرة وهي تخفق من شدة آلامها وتتابع اعترافها أمام زوجها قائلة :

مضت الأربعة أعوام على وفاة والدتي ، كنت خلالها في بحر زاخر بالآلام وكثيرا ما شككت بمعرفة زوج امي واطلاعه على ما جاء باعترافها لي ، ولكن سرعان ما تتبدد شكوكي وتتلاشى حين اشعر بازدياد عطفه وحنانه . وذات يوم وبعد مضي عامان على زواجنا دخلت عليّ الخادمة تخبرني ان رجلا فقير الحال رث الثياب يريد مقابلتي ولامرٍ ضروري لم أكن اتوقع أو أتخيل من يكون هذا الطارق ، وعندما قابضته وتفحصت في وجهه شعرت أن وجهه وملامحه ليست بغريبة ، أخذت استعرض ذاكرتي وتنبهت إلى سؤاله وهو يتفحصني ويحدق فيوجهي كأنه يبحث عن شيءٍ مّا يود أن تعثر عليه قائلا :

أ — أنت ، أنت ثريا ؟ قلت : نعم — تابع ، ماسم والدك ؟ قلت ماشأنك بهذا ، أهو تحقيق ؟ قل ماذا تريد والا أغلقت الباب في وجهك ، فاسترسل قائلا :

أنا اعرفك — اسم والدك أحمد عبد المعطي التاجر الثري الذي كان يقطن بمنزل فخم يشبه القصر اليس كذلك ؟

أما اسم امك علياء ، إلا اخبرني ما اخبارها واين هي الان
أما زالت مقيمة بالقصر الكبير ؟ اما زالت ثرية ؟ . . . .

سرد كل مالديه من معلومات وأنا في شبه غيبوبة واوشك
أن افقد وعيي إلا أني تمالكت نفسي وبكل اسى سألته ومن تكون
لتعرف عني كل ذلك ؟ ؟

فاشار إلىّ كي أصرف الخادمة ففعلت فاجاب الا ترغبين
بأن نتعارف الا تقولي لي تفضل ؟ قلت : قل ماعندك وانصرف ،
فاستطرد قائلا أنا اسمي سعيد المهدي فما كاد يكمل اسمه حتّى
وقعت مغشيا علىّ ولم أع الا على صوت الخادمة وهي تقول
الحمد لله على سلامتك ياسيدتي . . وقدمت لي ورقة اعطاها إياها
وطلب منها أن تسلمني اياها ، امسكت بالورقة وقرأتها فقد
كتب بها تهديده قائلا : ادفعي كل ما اطلبه منك وإلا عرضت
حياتك للهلاك .

فتأكدت من أنه هو ، نعم أنه الظالم الذي دفع بأمي إلى
الهلاك والخطيئة وكنت ثمرة خداعه وظلمه وها هو يظهر الآن
على مسرح حياتي بعد مضي خمسة عشر عاما قضاها في السجن
ولا أدري اسبابها ، من ذلك الوقت إلى حتّى يوم امس وهو
يهدّدني واشترى سكوته ، وعندما جاء بالامس طلب مبلغا
كبيرا مبررا أنه بحاجة له وانني قادرة على دفعة ، خاصة
وأنه علم أن والدتي أوصت بأن تكون الفيلا لي بعد وفاتها ،

كما انه اكّد عليَّ ان تباع الفيلا ويأخذ نصف ثمنها ولكنّي رفضت طلبه باصرار واخبرته اني لا استطيع دفع أي مبلغ واسترحمته أن يكف عني ويحكّم ضميره لكنه ابي وزمجر مهدداً أن يفشي سرّي وسرّ والدتي وان تكون هذه الفضحية خرابا لبيتي وفراقا لزوجي ، ولأ تذوّق مرارة الذل والفقر . وخرج ليبحث عنك ويفضح امري لديك وها هو ذا فعل .

وبيد مرتجفة فتحت دولاب ملابسها واخرجت من حقيبة يدها ظرفاً قديماً وقدمته لزوجها قائلة هذا اعتراف والدتي وها أنا ثمرة تلك الخطيئة امامك ، فافعل بي ما يحلو لك . واجهشت بالبكاء وتنفس الزوج الصعداء وشعر وكأن الكابوس الذي كان يجثم على صدره قد ولى . فضم زوجته بحنان وعطف وهمس ، الحمد الله اهون بكثير مما كنت اتوقع فاطمئني يا زوجتي الحبيبة فانا لن اتخلى عنك ولا يحاسب بريءُ بإثم غيره . وابشري فلن يفرقنا سوى الموت بعد عمر طويل إن شاء الله .

الفهـــرس